أ.د.محمد بشير حسن راضي العامري

الانوار الحضارية

من القطوف الاندلسية اليانعة



بسم الله الرحمن الرحيم

الانوار الحضارية

من القطوف الاندلسية اليانعة

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية (2014/12/5880)

العامري، محمد بشير

الأنوار الحضارية من القطوف الاندلسية اليانعة/ محمد بشير العامري/ عمان:- دار غيداء للنشر والتوزيع، 2014

( ) ص

ر.أ: (2014/12/5880).

الواصفات:/ الأدب العربي// المرأة/ الاندلس

❖ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN 978-9957-96-093-3

دار غيداء للنشر والتوزيع

تلاع العلي – شارع الملكة رانيا العبدالله
مجمع العساف التجاري – الطابق الأول
تلفاكس : 5353402 6 962+
خلوي : 95667143 7 962+
ص.ب : 520946 عمان 11152 الأردن
E-mail: darghidaa@gmail.com

الانوار الحضارية

من القطوف الاندلسية اليانعة

أ.د.محمد بشير حسن راضي العامري

جامعة بغداد

كلية التربية للبنات/قسم التاريخ

الطبعة الأولى

2016 م — 1437 هـ

الفهرس

المقدمة

بسم الله تعالى والصلاة على نبينا خاتم الرسل وعلى اله وأصحابه والتابعين أفضل الصلوات.

استهواني أن أكتب في الانوار الحضارية من القطوف الاندلسية اليانعة وأختار نخب متنوعة في جوانب متعددة أجتماعية وفكرية وعسكرية لعرض ماتم أنجازه في التاريخ في أضواء من أشراقات أندلسية أذ أن كل بقعة من أرض الاندلس أحتوت على منابع وذخائر حضارية في اوقات الوجود العربي الاسلامي، وقد أعجب علماء وأدباء وشعراء الاندلس بطبيعتهم والبيئة العلمية والخيرات الطبيعية والمناظر الخلابة وقد نطقت حناجرهم برقة وعذوبة ونعومة الحياة وافتخروا بمجدهم الحضاري الذي لاتزال أثاره شاهد للعيان من المخطوطات والعمارة وبصمات الثقافة في اللغة الاسبانية والعادات والتقاليد وكان الاموات الاندلسيين أحياءً يرزقون لانهم خلدوا حضارة أنسانية بحق يفخر بها الاندلسي والعربي والمسلم وقد أنشد الشاعر الاندلسي أبن خفاجة القرطبي أبياتاً حضارية بقوله:

ياأهل أندلس لله دركم	ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد الافي دياركم	وهذه لوكنت خيرت أختار
لاتتقوا بعدها أن تدخلوا سفراً	فليس تدخل بعد الجنة النار

حرص علماء الاندلس في متابعة أخبار المشرق الاسلامي وأخذوا منه وأعتمدوا على أنجازاته العامة حباً لهم والارتقاء الى مستواه في مقارنة الاندلس مع أحوال أهل المشرق في كافة نواحي الحياة العامة كما جاء عند الجغرافي ابن غالب الغرناطي في كتابه فرحة الانفس في تاريخ الاندلس نقلاً عن الرازي والبكري القرطبي بقوله (والاندلس شامية في طيب أرضها ومياهها يمانية في اعتدالها واستوائها، اهوازية في عظيم جبايتها علذبة في منافع سواحلها، صينية في جواهر معادنها، هندية في عطرها وطيبها، وأهلها عرب في العزة والانفة وعلوا الهمة وفصاحة الالسن وطيب النفوس وايابة الضيم وقلة احتمال الذل هنديون في فرط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها، هم أشد الناس بحثاً عليها

وأصحهم ضبطاً وتقييداً ورواية لها وخاصة لكتاب الله وسنة نبيهم محمد (ص) بغداديون في نباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة فكارهم ونفوذ خواطرهم ورقة أخلاقهم وظرفهم ونظافتهم،يونانيون في استنباطهم للحياة ومعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لاجناس الفواكه وتدبير لتركيب الشجر ولاقامة البساتين بصنوف الخضر وانواع الزهر، منهم احكم الناس لاسباب الفلاحة، ومنهم ابن بصال صاحب كتاب الفلاحة الاندلسية التي شهدت التجربة بفضلها وعول على صحتها صينيون في اتقان الضائع العملية واحكام المهن التصويرية، منهم اصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الاعمال ومقاساة النصب في تحسين، تركيون في معاناة الحروب ومعالجة الاتها، منهم احدق الناس بالفروسية وابصرهم بالطعن والضرب، وذلك بحسب مايقتضيه اقليمهم، واعطته لهم نسبتهم من ذلك على ماذكره بطليموس وغيره)).

تطرق النص اعلاه على حقائق اشراقات حضارية وتطلع اهل الاندلس على الامم والشعوب في الولايات الاسلامية في القرنين الثالث والرابع الهجريين عصر ومنافسة قواعد وعواصم الولايات الاسلامية في القرنيين الثالث والرابع الهجريين في عصر قمة الازدهار الحضاري في الاندلس ابان عصر الامارة والخلافة في قرطبة ومنافسة قواعد وعواصم الولايات الاسلامية في جميع مجالات الحياة العامة، حقاً يمكن التباهي والتفاخر والتنافس بمجد الاندلس الحضاري.

اطلالة حضارية جديدة في دراسة اشراقات حضارية اندلسية لعلنا نقوم بتوصيل اخبار اهل الاندلس للشباب العربي المسلم المتطلع على حضارة الغرب التي سرقت ونهبت وابتزت تراثنا من خزائن الاندلس والمغرب واستفاد وامنه وطوروه حسب معطيات العصر لابد لنا من النهوض الحضاري العربي الاسلامي لنعيد فجر الاندلس واشراقات بفضل دستور الاسلام القران الكريم والحديث الشريف والسنة النبوية المطهرة اقول قولي للمثقفين وبالله تعالى استعين وصلى الله على نبينا الكريم صاحب العلم والمعرفة والاخلاق والرحمة اسئل الله ان يتقبل من العبد الفقير هذه الاوراق التاريخية من فضله والسلام عليكم.

أ. د. محمد بشير حسن العامري

اشراقات علمية واجتماعية
للسيدات الاندلسيات عن حقائق واقع الحب العذري
الاندلسي من الحرائر والجواري عند الحكام والعامة

اشراقات حضارية أندلسية

اشراقات علمية واجتماعية للسيدات الاندلسيات عن حقائق واقع الحب العذري الاندلسي من الحرائر والجواري عند الحكام والعامة

تقديم تاريخي:

لعبت المرأة الاندلسية دورة مميزا عبر التاريخ، وقد ساهمت في ازدهار الحركة العلمية وترسيخ روح المحبة والاحترام والتسامح في المجتمع الاندجلسي،

وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ غافر40.

لم تتطرق المصادر الانداليسية اثنا الفتح العربي الاسلامي لشبه الجزيرة الاسبانية من عبور النساء الفاتحين في حملة القائد طارق بن زياد وكان معه سبعة الالف مقاتل، ثم امده الوالي موسى بن نصير البكري[1] بخمسة الالف، فصار مع القئد طارق اثني عشر الف اغلبهم من عرب البربر كما جاء بالنص " طارق بن زياد،وكان فارس همدانيا ويقال انه ليس بمولاه، وانه من موالي صدف فبعثه في سبعة الالف من المسلمين جلهم البربر والموالي ليس فيهم عرب الا قليل "[2].

اشارت النصوص التاريخية ان حملت طارق بن زياد خلت من النسوة وان المقاتلين عبرو بدون عوائلهم، ويذكر ابن القوطية القرطبي وذلك بقوله " وقصد طارق بنت زياد

---

(1) مؤلف مجهول اندلسي / اخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر امرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق اميليو لافونشي القنطرة، مدريد 1867م نشر دار اسامة، ص3، موسى بن نصير بن بكر بن وائل مولى بنى امية، واصله من علوج اصابهم خالد بن الوليد في عين التمر في مدينة كربلاء في العراق.

(2) المصدر السابق، ص6.

فرغبه في الاندلس، وذكر له شرفها وضعف اهلها وانهم ليسو اهل شجاعة، وكتب طارق بن زياد الى موسى بن نصير يعلمه بذلك، فامره بالدخول فحشد طارق "[1]

لذلك يمكن القول ان الفاتحين دخلو اسبانيا بدونت النساء وانهم اتخذوا الزوجات الاسبانيات بعد الفتح، كما اورد الخبر "جميع العرب الذين دخلو الجزيرة دخلوها رجالا بدون نساء ثم اتخذو النساء من اهل البلاد"[2]

رافقت طارق بن زياد جارية له تعرف ام حكيم كما اورد النص "وبلغ خبر طارق ومن معه اهل الاندلس ومكانهم الذي هم به، وتوجه طارق فسلك باصحابه على قنطرة من الجبل على قرية يقال لها قرطاجنة، وزحف يريد قرطبة فمر بالجزيرة في البحر فخلف بها جارية له يقال لها ام حكيم "ومعها نفر من جنده، فتلك الجزيرة من يوم اذ تسمى جزيرة ام حكيم [3]

تضمنت خطبة طارق بن زياد في جنده بعد عبور البحر يحث بها المقاتلين بمواصلة الجهاد ويرغبهم بمضاهر الحياة الاجتماعية الاسبانية وما بها من النساء الجليلات بقوله "... وقد بلغكم ما انشاءت هذه الجزيرة من الحور الحسان، بنات اليونان، الرافلات بالدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان... "[4]

يذكر نص الخطبة على ان الجند كانو بحاجة الى النساء لانهم عبرو من دون نسائهم وزوجاتهم وانهم اذا ما فتحو اسبانيا وانتصرو سوف يشاهدون النساء الشقراوات الجميلات الاسبانيات ويتزوجون منها.

---

(1) تاريخ افتتاح الاندلس م تحقيق خوليان روبيبيرا، مدريد 1868م، ص8.

(2) فجر الاندلس م، الشركة العربية، القاهرة 1959، ص68.

(3) ابن عبد الحكم المصري، عبد الرحمن بن عبد الله / فتوح افريقيا والاندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1964م / ص73..

(4) المقري، شهاب الفدين احمد بن محمد (ت1041) نفح الطيب من غضن الاندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت.

اول زواج تمت بعد الفتح الاسلامي ذكرتها المصادر الاندليسية كانت للوالي عبد العزيز بن موسى بن نصير من ارملة الملك الاسباني لاذريقRodrigo الذي قتل بمعركة شذونة عام 92هـ / 711م من الامير ايلوخيا التي لقبت ام عاصم وكانت جميلة احبها الولي عبد العيز واعجب بها ووافقت الاميرة الاسبانية بالزواج وتم ذلك، كما ذكرنت الرواية التاريخية "... فلما صار الامر الى سليمان حبس موسى بن نصير واغرقه وعهد الى خمسة نفر من وجوه العرب في الاندلس بقتل ابنه عبد العزيز منهم حبيب بن ابي عبيدة الفهري وزياد بن النابغة التميمي فقصدو اليه...فلما اصبح خرج الى مسجد وصار في المحرب، وقراء بمفاتحة الكتاب وسورة الواقعة فرفع القوم سيوفهم عليه بمرة واخذو راسه وبعثو به الى سليمان وكان ذلك بمسجد ربينة المشرق على مرج اشبيلية اذ كان ساكنا في كنيسة ربينة واذا نكح امرأة من القوط تسمى ام عاصم ينظر: **عبد الملك بن حبيب السلمي الاليبري، افتتاح الاندلس، تحقيق د. محمود علي مكي، مجلة العهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد، العدد 5 (1965م) 222، ابن هديل الغرناطي م تحفة الانفس وشعار سكان الانفس، مصور لويس مرسي، باريس 1932، ابن خلكان، وفيات الاعيان ج5/ 321ذ-322..**

كان يسكن معها في هذه الكنيسة، وكان قد ابتنى على بابها المسجد الذي قتل فيه، على عهد قريب "[1]

اورد المؤرخ ابن عبد الحكم المصري رواية زواج الوالي عبد العزيز من ارملة الملك الاسباني بروايته "بعد خروج ابيه قد تزوج امراءة نصرانية بنت ملك من اهل الاندلس، يقال انها ابنة لذريق ملك الاندلس الذي قتله طارق فجاتهمن الدنيا بشئ كثير لايوصف، فلما دخلت عليه قالت مالي لاارئ اهل مملكتك يعظمونك ولايسجدون لك، كما كان اهل مملكة ابي يعظمونه ويسجدون له فلم يدر ما يقول لها فامر بباب فنقب له في ناحية قصره وجعله قصيرا وكان ياذن للناس فيدخل الداخل اليه من الباب حين يدخل منكسا راسه لقصر الباب، وهي في موضع تنظر الى الناس منه فلما راءت ذلك قالت لعبد العزيز الان قوي ملك. وبلغ الناس انه انما نقب الباب لهذا، وزعم

---

(1) ابن القوطية القرطبي / تاريخ افتتاح الاندلس / ص11.

بعض الناس انما انها نصرته فثار به حبيب بن ابي عبيدة الفهري، وزياد بن النابغة التميمي، واصحاب لهم من قبائل العرب واجتمعوا على قتل عبد العزيز الذي بلغهم من امره واتوا الى مؤذنه، فقالوا اذن بليل لكي يخرج الى الصلاة، فاذن المؤذن ثم ردد التثويب، ثم توجه الى المسجد وقد اجتمع له اولئك النصر وغيرهم ممن حضر الصلاة وتقدم عبد العزيز فافتتح يقراء ".. ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ [1] فوضع حبيب السيف على راس عبد العزيز فنصرف هاربا من دخل داره فدخل جنان له واختبى فيه تحت شجرة، وهرب حبيب بن ابي عبيدة واصحابه، واتبعه زياد بن النابغة تخبى ولك ما سالت فقال: لاتذوق الحياة بعدها، فاجهز عليه واحتز راسه وبلغ ذلك حبيبا واصحابه فرجعوا. ثم خرجوا براس عبد العزيز الى سليمان بن عبد الملك وامروا على الاندلس [2].

(1) سورة الواقعة:1-3.

(2) فتوح افريقية والاندلس / ص84-85.،.

اسهامات نساء الاندلس

في الحركة العلمية والعامة

اسهامات نساء الاندلس في الحركة العلمية والعامة

تمهيد

لعبت المرأة الاندلسية دورا مميزا لايقل اهمية عن اختها في المشرق الاسلامي بميدان الثقافة العربية الاسلامية في اللغة والشعر والادب والرواية وقد احصى ابن حزم القرطبي مشاركات الاندليسيات بقوله "او ذوات ضاعة يقرب بها الاشخاص، فمن النساء كالطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصناع في المغزل والنسيج، وما اشبه ذلك "[1]

تطرقت كتب مصادر تاريخ الاندلس عن انبثاق وبزوغ نشاط المراة الاندلسية المميز في عهد الامارة الاموية (138 – 316 هـ) بذكر نصوص عن الجواري الاندلسيات وابناء الامراء مثل الامير الحكم بن هشام وله من الابناء الذكور 19 والبنات 21 (21) [2]

ويذكر مؤلف اندلسي عن الامير الحكم الاول بان (امه ام ولد اسمها زخرف اهداها لابيه قارله بن بليلت الرومي عند مسالمته لعبد الرحمن الداخل "ركزت النصوص الاندليسية على ولع حكام الاندلس وحبهم المفرط للجواري اذ نرى ان الامير الحكم بن هشام بن عبد الرحون الداخل الملقب بالريضي كان له خمس جواري اندلسيات، كما ذكر النص "وكان الحكم شاعرا مجيدا "ومن شعره في خمس جواري له كان يحبهن، ويفضلهن على سائر حرمه ويرفهن في خدمته، فذهب يوما ليدخل معهن اخرى تخدمه فابين عليه، ونهضن مغضبات من بين يديه عليه فلما ولين عنه انشا يقول[3]:

---

(1) ابن حزم الاندلسي / ت456هـ/ طوق الحمامة في الالفة والالاف،ضبط سعيد محمود عقيل/ دار الجيل / بيروت بلا ت) ص56.

(2) ابن عذاري المراكشي (ت بعد 712هـ) البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، ج2/ ص75.

(3) علي بن موسى بن محمد بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي الغرناطي ت 685هـ/ المغرب في حلى المغرب / دار الكتب العلمية، ط.بيروت1417هـ/ 1997م، ج1/ 13.

قـضب مـن البـان ماسـت بـين كثبـا   نـولين عــني وقــد ازمعــن هجرانــي
ناشـــدتهن بحقـــي فـــاعتزمن علـــي   العـصيانت حتـى حـلا مـنهن عـصياني
ملكـــني ملكـــا ذلـــت عزائمـــــــــه   للحـــــــــب ذل اسـير موثـق عـان
مـن لـي بمغـضبات الـروح مـن بـدني   يغـضبني في الهـوى عـزي وسـلطاني
يبـسمن عـن نـور مثـل الاقحـوان او   الـدار المنـضدة في حافـات مرجـان.
ابـدين عـصيان مـن يظهـرن طاعتـه   اعــج لــذي طاعــة في زي عــصيان
لهـن عـتبي مـا بقلـبي مـصـــطبر   علـى العتـاب ولا يـاوي لـسلوان
تركـت سـلطان ملكـي للـصبابة مـذ   سـطا الغـرام علـى قلـبي بـسلطان

ثم دعاهن واسترضاهن فعدن الى حالهن:

وهو القائل ايضا في هذا المعنى:

ظـل مــن فـرط حبـه مملوكــــا   ولقـد كـان قبـل ذالـك مليـــكا
ان بكـى اوشـكا الهـوى زيـد ظلمـا   وبعـاد ادنـىء حمامـا وشـــيكا

يجعل الخد واضحا فوق ترب للذي يجعل الحرير اريكا
هكذا يحسن التذلل بالحر اذا كان بالهوى مملوكا[1]

واهتم شيخ المؤرخين الاندلسيين ابـن حبـان القـرطبي بتوثيـق مـا ذكرتـه المـصادر الاندليسية في ولع الامير الحكم الريضى بالنساء واتخاذ الجواري بروايته "ان الامير الحكـم كان شديد الانتخاب لمن يتخذه من سريرته، مستطيبا لمن يولـده مـنهن، بحاثـا عـن اصـول

(1) مؤلف مجهول / تاريخ الاندلس / ص176 -177،ابن عذاري المراكشي/ البيان المغرب، ج2/ 79 -80.

بيتهن ومظان تاديبهن، فيحظين بحسب ترفهن في درج فضائلهن ولايزال يتعرف الانجاب في ابنائهن"[1]

عرف عن الامير الحكم الربضى انه كان قاسيا جسورا " شهما، شجاعا، صارما، ذاكرا، انوفا حامي الذمار، شديد الحزم مخوف الصولة "[2]

سلك الامير الحكم الربضى طريق الملذات واشباع الرغبات ناسيا واجبه الديني وحضور الصلوات واحترامه للدين الاسلامي وقواعده، حتى ان قصره كان يعج باللهو والسهر والغرق بالملذات حتى الفجر، وكان فريق من المومنين يقتربون من اسوار قصر الامارة بقرطبة ويصرخون باصواتهم العالية مذكرين باذن الصبح وترك المنكرات لاداء صلاة الفجر وترك الغناء والخمر واطفاء انوار القصر والاستغفار.

استمر حكم الامير الحكم الربضي ومطاردة النساء لاشباع رغباته ولذاته وان " الحكم لاينال اللذات الاسرا، ولايلم الشراب حتى يلقى عليها سترا، ولا يجالس الامن داخل ساترته، ولاينافس في الخمر الامن دار دائرة، خوفا من فضيحة الاستشهار، وفرارا من تمكن الاظهار"[3]

ان جمال نساء اسبانيا واناقتهن ورقة قلوبهن وحبهن للدماء السمراء لاجساد الفاتحين المسلمين المتعطشين للشقراوات ولمعة اجسادهن ورقة بشرتهن البيضاء كان له اكبر الاثر في ولع اهل الاندلس من اتخاذ جواري من كثرتهن وجلبهن في الغزوات، كما ذكر ابن حزم القرطبي بقوله " واما جماعة خلفاء بني مروان، رحمهم الله – لاسيما ولد الناصر منهم فكلهم مجبلون على تفاضل الشقراء، ولا يختلف في ذلك، وقد رايناهم

---

(1) ابو مروان جبان بن خلف / المقتبس من ابناء اهل الاندلس / تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت 1973، ص187-188.

(2) مؤلف مجهول/ تاريخ الاندلس،ص175.

(3) ابن فضل العمري،شهاب دين احمد بن يحيى، ت749هـ،مسالك الابصار في ممالك الامصار/ الملك خشبة، ومراجعة حسين نصار، القاهرة2005م،ج10،ص467.

ورايننا من راهم من لدن دولة الناصر الى الان،فما منهم الاشقر نزعا الى امهاتهم، حتى قد صار ذلك فيهم خلقة، حاشى سليمان الظافر رحمه الله، فاني رايته اسواء اللمة واللحية "[1]

ازدانت المصادر الاندلسية بنصوص مهمة عن حب الامير الحكم الربضي للجواري الجميلات ويذكر انه كانت له جارية مغنية جميلة كنيتها عزيزة قلب ولع بها وتعلق بقلبها وتم اسكانها بين جواريه الى قائمة خطاياته وامهات اولاده.[2]

وصف ابن حزم القرطبي سلوك الامير الحكم الربضي منتقدا سيرته بقوله:" وقال ابن حازم في لقط العروس: ومن المجاهدرين بالمعاصي السفاحين للدماء لدينا الحكم صاحب الربض، وقد كان من جبروته يخصي من اشتهر بالجمال من ابناء رعيته، ليدخلهم الى قصره "[3]

يمكن مقارنة الحكم الربضي ووصفه بالحجاج بن يوسف الثقفي الذي حكم العراق في العصر الاموي بيد من حديد وهو ابن جلا وضلاع الشنايا، وهو القائل في اهل الكوفة بالعراق اني لارئ ان هناك في ارض العراق رؤسا قد اينعت وحان وقت قطافها.

وقع انتقاد المصادر الانديليسية للامير الحكم الربضي بالسلبيات فهو له من المواقف المحمودة في الاستجابة لنداء امراءة انديليسية وقعت في الاسر عند الاسبان النصاري فندبته بصرخات عالية لحماية شرف نساء الاندلس، قلبي طلبها واسعفها وانقذها وحررها بحملة عسكرية بنفسه، كما نقل لنا حادثة استغاثة الاسيرة الانديليسية عند الاسبان

(1) طوق الحمامة / ص48، سليمان ابن الحكم بن سليمان بن الناصر، تولى الخلافة سنة 400هـ وتلقب بالظاهر بحول القريبة من قرطبة فاخلوها واعملوا في اهلها القتل والسبي.

(2) العمري / مسالك الابصار، ج10/ 467.

(3) نقلا عن ابن سعيد المغربي / المغرب / ج1/ 17.

النصاري ابن عذاري المراكشي[1] بنصه:" وفي سنة 194 هـ وغزا الحكم الى ارض الشرك، وكان السبب في هذا الغزاة ان عباس بن ناصح الشاعر كان بمدينة الفرج (وهي وادي الجارة) وكان العدو بسبب اشتغال الحكم بماردة وتوجيه الصوائف اليها مدة من سبعة اعوام، قد عظمت شوكته، وقوي امره، فشن الغارات في اطراف ثغور، يسبي ويقتل. وسمع عباس بن ناصح امراة في ناحية وادي الحجارة، وهي تقول "واغوثاه ياحكم ! قد ضيعتنا واسلمتنا واشتغلت عنا، حتى تاسد العدو علينا ! " فلما وفد عباس على الحكم، ورفع اليه عباس على الحكم، ورفع اليه شعرا يستصرخه فيه، ويذكر قول المرأة واستصراخها به، وانهى اليه عباس ماهو عليه الثغر من الدهن والنيات الحال. فرثى الحكم للمسلمين وحمى لنصر الدين، وامر بالاستعداد للجهاد، وخرج غاريا الحارض الشرك، فاوغل في بلادهم، وافتتح الحصون، وهدم المنازل، وقتل كثيرا، واسر كذلك، وقفل على الناحية التي كانت فيها المرأة، وامر لاهل تلك الناحية بمال من الغنائم، يصلحون به احوالهم ويفدون سباياهم، وخص المرأة واثرها، واعطاها عدد من الاسرى عونا، وامر بضرب رقاب باقيهم وقال لاهل تلك الناحية وللمراءة" هل اغاثكم الحكم؟" قالوا: " شفا والله الصدور، ونكىفي العدو،/ وماغفل عنا اذ بلغه امرنا فاغاثه الله واعز نصره" نقل المؤرخ ابن عذري المراكشي حادثة بحق امرأة اغتصبت في كورة جبان في القضاء ايام المرتضى " فكان اقصد الناس الى الحق، وابعدهم من جور، وانقذهم بحكم ورفع اليه رجل من كورة جيان ان عاملا للحكم اغتصبه جارية، وصيرها الى الحكم، فوقعت من قلب الحكم كل موقع، فاثبت الرجل امره عند القاضي، واتاه بينة تشهد على معرفة ما تظلم منه، وتمكنه للجارية وبمعرفتهم بها، فاوجبت السنة ان تحضر الجارية، فاستاذن القاضي على الحكم، فاذن له، فلما دخل عليه قال له " ايها الامير انه لايتم عدل

(1) ابن عذاري المراكشي / البيان المغرب /ج2/ ص78-79، ينظر: النباهي المالقي ابو الحسن بن عبد الله بن الحسن/ كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، نشر بعنوان، تاريخ قضاة الاندلس / نشر المكتب التجاري (بيروت بلا ت.) ص47-53 (القاضي محمد بن بشير المعافري).

في العامة دون اقامته في الخاصة" وحكى له امر الجارية، وخيره بين ابرازها للبينة ليشهد على عينها، او عزله فقال له الحكم: "اولا ادعوك الى خير من ذلك ! ابتاع الجارية من صاحبها بابلغ ما يطلب فيها" فقال القاضي:" ان الشهود قد شهد وا من كورة جيان، واتى الرجل يطلب في فطانه، فلما صار ببابك، تصرفه دون انقاذ الحق له، ولعل قائلا يقول: باع مالا يملك بيع مقور" فلما رائ عزمه على ذلك، امر باخراج ىالجارية من قصره، فشهد الشهود عنده على عينها، وقضى بها لصاحبها. وكان هذا القاضي محمد بن بشير، فلما خرج للمسجد. وجلس في رداء معصفر ومشعر مفرق، فاذا طلب ما عنده، وجد افضل الناس واورعهم"[1]

(1) المصدر السابق، ج2/ 73

احوال النساء

في حكم الامير عبد الرحمن بن الحكم (الاوسط الثاني)

احوال النساء في حكم الامير عبد الرحمن بن الحكم (الاوسط الثاني)

عرف منه انه كل مولعا بانساء اذ ان الولد على سر ابيه بل اكثر اذ بالغ في اتخاذ الجواري "وكان شديد الهوئ في النساء،كثير الاعجاب بهن، قيل انه عشق جارية له اسمها طروب فولع بها وكلف كلفا شديدا، وهي التي بني عليها الباب ببدر الدراهم حين تجنت عليه، واعطاها خليا قيمته مائة الف دينار فلامه بعض وزرائه، وقال له "ان هذا احلى نفيس لا ينبغي ان تخلى عنه خزانة الملك" فقال له: "ان لالبسه عندي انفس منه خطرا، وارفع قدرا واكرم منه جوهرا، واشرف عنصرا، وفيها قال:

اذا ما بدت لي شمس النهار طالعة ذكرتني طروبا
انا ابن الهشاميين من غالب اشب حروبا واطفي حروبا

وخرج غازيا الى جليقية، فاطال الغيبة وتشوق الى جاريته المحبوبه طروب فقال:

عدا بي عنك مزار العدا وقودي اليهم لهاما مهيبا
فكم قد تخطيت من سبب ولاقيت بعد دروب دروبا
الاقي بوجهي سموم الهجير اذا كاد منه الحصى ان يذوبا
بنا ادرك الله الدين الهدى فاحييته واصطلمت الصليبا
سمرت الى الشرك في جحفل ملات الحزون به والسهوبا [1]

الحادثة جاءت في فكر الامير عبد الرحمن الثاني مع جاريته طروب لجمالها واخلاصها وخدمتها وانصياعها لقلب الامير الاموي وشهوته، وكثير ما كانت تتدلل عليه لتنال منه حبا ومالا كثير، فهي ذكية ورائعة الجمال احبها وفضلها على جميع الجواري.

---

(1) مولف مجهول / تاريخ الاندلس / ص185-186.

انجب الامير عبد الرحمن الاوسط مـن الـذكور 45 ولـد ومـن الانـاث 42 بنتـا. [1] وخبر يقول له من الابناء مائة ولد خمسون ذكور وخمسون اناث[2].

وصف الامير عبد الرحمن الاوسط بانه يحب النساء لدرجة العبودية وهـو المثقـف المتعلم المميز في عصره وذكر ابن حزم في نقط العـروس: ان ولـده مائـة، النـصف ذكـور، عني ابوه بتعليمه وتخريجه في العلوم الحديثة والقديمة، ووجه عباس بـن ناصـح الى العـراق في التماس الكتب القديمة، فاتاه بالسند هند وغيره منهـا. وهـو اول مـن دخلـها الانـدلس وعرف اهلها بها ونظر هو فيها"[3].

يمكن القول ان الأمير عبد الرحمن الأوسط كان مراهقا شبقا على الغرام من إشـباع شهواته بالنساء العديديات المتنوعـات القلـوب والإشـكال لدرجـة انـه أسـتحلم في حملـه جهادية وكأنه شاب صغير وصبي مراهـق، كمـا أورد الـنص: " وأجنـب في بعـض غزواتـه وقددنا من وادي الحجارة، فقام الى الغـسل، وفكـرة موقـوف علـى الخيـال الـذي طرقـه، فاستدعى ابن الشمر وقال له: اجز.

شـــاقك مـــن قرطبـــة الـــسارى   باليـــل لم يـــدر بـــه الـــداري

فقال بديهية:

زار فحيـــا في ظـــلام الـــدجى   اهـــلا بـــه مـــن زائـــر زاري

فهاج اشتياقه لصاحبة الخيال، فاستخلف على الجيش، ورجع الى قرطبة.

وكان مولعاً بالنساء ولا يتخذ منهن ثيبا البتة، وكملـت لذتـه بقـدوم زريـاب غـلام إسحاق الموصلي"[4].

---

(1) ابن عذاري المراكشي / البيان المغربي / ج2 / ص81.

(2) مولف مجهول / تاريخ الاندلس / ص184.

(3) عند ابن سعيد المغربي / المغوب / ج1 / 18.

(4) عند ابن سعيد المغربي / المغرب / ج1 / ص19.

مثل هذه الصور تعبر عن عقلية الحاكم وانصرافه الى قلبه لا الى إيمانه وانغماسه الى اللهو والعشق والطرب وأراد إن يكفر عن خطيأته وسيئاته فامر ببناء المساجد وإطلاق أسماء الجواري عليها تبركا لهن وذلك " وفي سنة 234 هـ أمر الامام عبد الرحمن بن الحكم ببناء الجوامع الكبيرة بسائر الاندلس فبنيت، وضع بها المنابر للخطباء، وتنافست جواريه في بناء المساجد وعمارتها، واتخاذ الاوقاف بفعله، فبني مسجد طروب، ومسجد مجد، ومسجد الشفاء، ومسجد متعة"[1].

وكان الامير عبد الرحمن الاوسط مشفقا على الجواري متلطفاً ومستمتعاً لهن مدافعًا لمطالبهن كما يؤكد لنا النص بقوله " وفدت عليه حسانة التميمية، وهي مشتكية من جابر بن لبيد والى البيرة، وكان الحكم قد وقع لها بخط يده بتحرير املاكها، وحملها في ذلك على البر والاكرام، فتوسلت الى جابر بخط الحكم فلم يفدها، فدخلت الى الامام عبد الرحمن فاقامت بفنائه، وتلطفت مع احد نسائه حتى وصلت اليه، وهو في حال الطروب فانتسبت له فعرفها وعرف اباها، ثم انشدته مرتجلة هذه الابيات.

الى ذي النــدى والمجــد ســارت	علــى شــحط تـصلى بنـار الهــواجر
ليجـبر صــدعي انــه خــير جــابر	ويمــنعني مــن ذي الظلامــة جــابر
فــاني وايتــامي بقبــضة كفــه	كـذى ريـش اضـحى في مخالـب كاسـر
جــدير لمثلــي ان تقــول مروعــة	لموت ابي العاصي الـذي كـان ناصـري
سـقاه الحيـا لـو كـان حيـا لمـا اعتـدى	علــى زمــان بــاطش بطــش قــادر
ايمحــو الــذي خطتــه يمنــاه جــابر	لقـد سـام هـذا الملـك احـدى الكبـائر

فلما تمت انشادها دفعت اليه خط والده الحكم بتحرير املاكها، وحملها على المراعاة والمحاباة، وقصت عليه جميع امرها مع جابر وامتناعه عليها، فرق لها واخذ خط

(1) مولف مجهول / تاريخ الاندلس / ص187.

ابيه فقبله، ووضعه على عينه، وقال " لقد تعدى ابن لبيد طوره وسفه رايه كيف ينقص امر الامام الحكم، وحسبنا ان نسلك سبيله بعده، ونحفظ بعد موته عهده، انصرفي باحسانه فقد عزلنه لك، ووقع لها بمثل توقيع ابيه الحكم فقبلت يداه، وامرلها بجائزة فانصرفت، وبعثت اليه بقصيدة من البيرة منها هذه الابيات المقيد بعد.

ابن الهاشميين خير الناس مآثره ... وخير منتجع يوما كرواد

ان هز يوم الوغى اثناء صعدته ... روع انا بيبها من صرف فرصاد

قل للامام ايا خير الورى نسبا ... مقابلا بين ابناء واجداد

جودت طبعي ولم ترضى الظلامة لي ... فهاك فضل ثناء رائح غاد

فان اقمت ففي نعماك عاطفة ... وان رحلت فقد زودتني زادي[1]

الحادثة تؤكد على عدله ومنع الظلم والحيف على النساء الاديبات والاستماع لتظلمهن واقرار الحق لهن، فهي صورة جميلة وموقف انساني للامير سجله تاريخ الأندلس.

اغرقت الجارية طروب صفحات المصادر الاندليسية باخبارها وتعلق قلب الامير عبد الرحمن الاوسط " وكان لايتخذ زوجة ولا جارية الا بكرا، ولا يتخذ منهن ثيبا البتة ولو كانت اتم الناس حسنا وجمالا، وغلبت عليه طروب حتى كان يشاورها في كل اموره، وكانت الامور دونه مع نصر الخصي فلا يرد شيا مما تبرمه"[2]

اهدى الامير عبد الرحمن الاوسط لجاريته طروب (عقد الثعبان) من الذهب الخالص والعائد للست زبيدة زوجة هارون الرشيدوقد سرق خلال الفتنة بين الامين والمامون، وحاول سراق بغداد البارعين من حمله وبيعه في الاندلس بمبالغ طائلة، وصار اثمن جوهرة ذهبية في الخزانة المالية في قرطبة، وقد ورد الخبر التاريخي "وكانت له جارية

(1) مولف مجهول / تاريخ الاندلس / ص188.

(2) مولف مجهول / تاريخ الاندلس / ص189.

تسمى الطروب،كان بها دينا، فصدت عنه يوما، وابدت هجرانـه. فارسـل فيهـا، فامتنعـت عليه، واغلقت على نفسها بيتا، فامر بنيان الباب بالخرائط المملوءة من الدراهم، استرضـاء لها، واستعطافا لوصلها. فلما فتحت الباب سرقطت الخارطة مـن كـل جانـب، فاخـذتها، فالفت فيها لحوا من عشرين الفا، وامر لها بعقد قيمته عشرة الالـف دينـارا، فجعـل بعـض من حضر من وزرائه يعظم الامر عليه، فقال له الامير عبد الـرحمن "ان لابـسه انفـس منـه خطرا وارفع قدرا ولئن راق من هذه الحصى فنظرها، ورصف في النفس جوهرهـا، فلقـد براء الله من خلقه جوهرا يغشى الابصار، ويذهب بالالباب. وهل على وجـه الارض مـن زبرجده وشـريف جوهرهـا اقـر لعـين، واجنـى لـزين، مـن وجـه اكمـل الله فيـه الحـسن ونضرته، والقى عليه الجمال بهجته؟"[1]

كان الامير عبـد الـرحمن الاوسـط يـشتاق للطـروب لمـشاهدتها وفي مـرة رفـضت الخروج مع حراسه "واستاذون في كسر الباب عليها، فنهاهم وامرهم بسد الباب عليها مـن خارجه ببدر الدراهم فبنو عليها ببدر الدراهـم حتـى طمـسوه،واقبـل الإمـام عبـد الـرحمن حتى وقف بالباب، وكلمها مسترضيا راغباً.

الى المراجعة على ان لها جميع ماسد بـه البـاب مـن بـدر المـال، فاجابتـه عنـد ذلـك وفتحت الباب فانهالـت البـدر في بيتهـا، فانكبـت علـى رجليـه تقبلـهما، وحـازت المـال لنفسها، وكان مبلغه الف بدرة في كل بدرة الـف دينـار، ووهـب لهـا عقـد جـوهر اشـتراه بعشرة اللالف دينار"[2].

اعتق الامير عبد الرحمن الاوسط عد من الجـواري وتـزوجهن والجـب مـنهن ابنـاء منهم ولي عهده المنذر كم اكد الخبر " واحب ايضا جاريته9 مؤثرة ام ولـده المنـذر فاعتقهـا وتزوجها، وكذلك جاريته الشفاء اعتقها وتزوجها، وكانـت لـه جاريـة تـسمى قلـم اديبـة

---

(1) ابن عذاري المراكشي / البيان المغرب / ج2 / ص92.

(2) مولف مجهول / تاريخ الاندلس / ص189.

حسنت الخط راوية الشعر، حافظت الاخبار عالمة بضروب الادب، وكان الامام عبد الرحمن صباب الغنى صبا مولع بالسماع مقدما له على جميع لذاته"[1]

اكد شيخ المؤرخين الاندلسين ابن حيان القرطبي دور الناس في شخصية الامير عبد الرحمن الاوسط بقوله " بانقطاعه الى خطيته طروب ام عبد الله الغالية عليه من بين جميع نسائه، وحطه في شعبها، وحملاته اياها على ماتسعى له من تقديم ولدها عبد الله للامارة بعد الامير ابنه على جميع الاراجح الاكبر من ولده متى حان حينه "[2]

سعت بعض الجواري في عصر الامارة بحبك مؤامرة على الامير عبد الرحمن الاوسط جراء الغيرة والحسد وميل الامير الى جاريتة الطروب وتعلق قلبه بجاريته يساهم بتدبير موامرة من جاريته الشفاء التي امرت الخادم نصر الخصي بسم الامير بواسطة الطبيب الحراني فعمل له الشراب المسموم كما جاء بالنص " فتقدم الامير الى نصر بادخال الحراني الى خزانة الطب وتمكينه مما يريد من اخلاط دواءه ليقيمه على حدة، فشرع الحراني في ذلك، وفجر ثقة الامير تطالعه بوصاياه، فامكنت الحراني منها فرصة اوحى اليها بشان الدواء، وسالها ان تحذر الامير من شرب الدواء، ففعلت ذلك خفية، فحذر الامير وصار يحتاج بالاشفاق عليه فلما غدا به نصر في يوم الذي فارقه عليه اظهر الامير الانكسار عنه، ووصف عائق يمنعه منه، وامر لحينه نصرا بشربه، فكانه توانى اذا لم يستعد له.

فاكرهه عليه، واسرع الخروج الى داره، وبادر الارسال في الطبيب الحراني، فعرفه ماجر عليه، فستغاثه، فامره ان يشرب لبن الماعز، فال الى ان طلب له وجي به، وعجل عليه السم، فمات ولم يشربه"[3] فمات الوصيف نصر الخصي بالسم الذي امر يضعه للامير عبد الرحمن الاوسط بدافع الانتقام وتحريض الجواري الغاضبات من موقف الامير

---

(1) المصدر السابق / ص189- 190.

(2) المقتبس من انباء اهل الاندلس / تحقيق مكي / ص8.

(3) ابن حيان القرطبي / المقتبس من ابناء اهل الاندلس / تحقيق مكي / ص15.

وتفضيل بعضهن على قلبه وبذلك حفر نصر الخصي قبره بنفسه وطمعه بالسلطة والنفوذ وشهرته.

تطرق ابن حزم القرطبي في ماهية الحب بقوله "الحب –اعزك الله – اوله هزل واخره حد ذقت معانيه لي جلاتها عن ان توصف، فلا تدرك حقيقيتها الا بالسعادة. وليس بمنكر في الديانة ولا بمحضور في الشريعة، اذا القلوب بيد الله عز وجل، وقد احب من الخلفاء المهديين والائمة الراشدين كثيرا، منهم باندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدعجاء، والحكم بن هاشم، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطروب ام عبد الله ابنه اشهر من الشمس، ومحمد بن عبد الرحمن وامره مع غزلان ام بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم، والحكم المستنصر وافتتانه بصبح ام هاشم المؤيد بالله رضى الله عنهم وعن جميعهم وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها"[1]

اعترف الفقيه ابن حزم القرطبي بتعلق قلبه بالجواري "وذلك اني كنت اشد الناس كلفا واعظمهم حبا بجارية لي، كانت فيما خلى اسمها نغم. وكانت امنيت المتمني وغاية الحسن خلقا وخلقا وموافقة لي، وكنت اب عذرها، وكانا قد تكافانا المودة، ففجعتني بها الاقدار، واخترمتها الليالي ومر النهار وصارت ثالث التراب والاحجار. ويسنى حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن، فلقد اقمت بعدها سبعة اشهر لا اتجرد عن ثياب ولاتفتر لي دمعة على جمود عيني وقلت اسعادها. وعلى ذلك فهو الله ماسلوت حتى الان.ولو قبل فداء لفديتها بكل ماملك من تالد وطارف، وببعض اعضاء جسمي العزيزة.

مسارعا طائعا، وماطاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها و لانسيت بسواها.وقد عفى صبي لها على كل ما قبله، وحرم ما كان بعده. ومما قلت فيها:

مهذية بيضاء كالشمس ان بدت   وسائر ربات الحجال نجوم

اطار هواها القلب عن مستقره   فبعد وقوع ظل وهو يحوم

---

(1) طوق الحمامة / ص17.

ومن مراثي فيها قصيدة منها:

كـــاني لم انـــس بالفاظـــك الـــتي ... علـــى عقـــد الالبـــاب هـــن نوافـــث

ولم اتحكـــم في الامـــــاني كـــــانني ... لافـــراط مـــا حكمـــت فـــيهن عابـــث

ومنها:

ويبـــدين عرضـــا وهـــن اوالـــف ... ويقـسمن في هجـري وهـن حوتنـث[1]

يعد ذلك اروع موقف واجمل صورة للحب العذري الأندلسي يفوق حب جميل العذري لحبيبته بثينة لما فيه من الود والفداء والأرق والثناء والسهر والندب والبكاء والحداد الذي قام به ابن حزم القرطبي وهو في ريعان شبابه العشريني وبلد الاندلس يعج بالجميلات الرائعات الشقراوات الحرائر والجواري يمكن الاستعاضة بمحبوبته، نعم نظرا لوفائها واخلاصها وتعلق قلبها حبا بابن حزم نالت الجواري الاندلس قدر كبير من الاحترام والعفة والدلال من الامراء والعامة فالشرف العربي ظل قائما في بلد الاندلس وقد سجلت حوادث في كتب التاريخ والادب ذلك منها خبر " ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعرا تغزل فيه بصبح ام المؤيد رحمه الله، فغنت به جارية ادخلت على المنصور محمد بن ابي عامر ليبتاعها، فامر بقتلها[2]

احترم الحاجب المنصور العامري السيدة صبح البشكنسية زوجة الخليفة الحكم المستنصر بالله ام هاشم الثاني لانها تمثل سمعة الخلافة الانديلسية لذا قام بفعلة عقوبة.

امتدح ابن حزم القرطبي نساء الاندلس وقدم لنا وصفاً عنهن يعبر عن ذوقه الفني والذوقي بالحريم ممتدحاً مركزاً بخصال الاخلاق والجمال والثقافة وهو ما ذكره عن زوجة اخيه بقوله " رونا اخبرك عن ابي بكراً رحمه الله،وكان متزوجاً عاتكة بنت قند صاحب الثغر الاعلى على ايام المنصور بن ابي عامر بن محمد بن عامر، وكانت التي

---

(1) ابن حزم القرطبي / طوق الحمامة / ص127-128.

(2) المصدر السابق / ص60.

لامرمى وراءها في جمالها وكريم خلالها، ولاتاتي الدنيا بمثلها في فضائلها، وكانا في حد الصبا وتمكن سلطانه تغضب كل واحد منها الكلمة التي لا قدرلها، فكانا لم يزالا في تغاضب وتعاتب مدة ثمانية اعوام، وكانت قد شفها حبه واصناها الوجد فيه والحلها شدة كلفها به حتى صارت كالخيال المتوسم دنفا، لايلهيها من الدنيا شي، ولاتسرين اموالها على عرضها وتكاثرها بقليل ولا كثير اذا فاتها اتفاقه معها وسلامته لها، الى ان توفي اخيى رحمه الله في طاعون في قرطبة في شهر ذي القعدة سنة احدئ واربعمائة، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول الى ان ماتت بعده بعام في اليوم الذي اكمل هو فيه تحت الارض عاماً"(1).

يعد ابدع نموذج جميل للمعاشرة الزوجية في الاندلس وتعلق قلوب الازواج وبناء الاسرة واحترم تعاليم الاسلام في الوفاء والاخلاص والشرف ليبارك الله وبنيه بالازواج. وابناهم لبناء المجتمع الاسلامي.

لقد انبهر واعجب الاديب الاندلسي يوسف ابن هارون الكندي الرمادي، ابو عمر (ت، 403 هـ) واصله من مدينة رماده من قرية شلب بجارية تعلق قلبه بها عند باب العطارين في قرطبة سماه خلوة وقصة عشقه عجيبة الصدفة فتغلبت على قلبه وهام بولعه والشاعر "كان مجتازاً عند باب العطارين بقرطبة، وهذا الموضع كان مجتمع النساء، فراى جارية اخذت بمجاميع قلبه، وتخلل حبها جميع اعضائه فانصرف عن طريق الجامع وجعل يتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة، فجازتها الى موضع المعروف بالريض. فلما صارت بين رياض بني مروان –رحمهم الله – المبنية على قبورهم في مقبرة الرياض خلف النهر نظرت منه منفرداً عن النماس لاهمه له غيرها، فانصرفت اليه فقالت له: مالك تمشي ورائي؟ فاخبرها بعظيم بليته بها. فقالت له: دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي، فلا طمع لك في النية ولا الى ما ترغبه سبيل فقال: انى اقنع النظر. فقالت: ذلك مباح لك. فقال لها: ياسيدتي: احرة ام مملوكة، فقالت مملوكة. فقال لها: مااسمك؟ قالت: خلوة. قال: ولمن

(1) ابن حزم القرطبي / طوق الحمامة / ص169.

انت؟ فقالت له: علمك والله بما في السماء السابعة اقرب اليك مما سالت عنه، فدع الحال. فقال لها: ياسيدتي، واين اراك بعد هذا؟ قالت حيث رايتني اليوم في مثل تلك الساعة من كل جمعة. فقالت له. اما ان تنهض انت واما انا فقال لها: انهضي في حفظ الله فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه اتباعها لانها كانت تلفت نحوه لترى ايسايرها ام لا فلما تجاوزت باب القنطرة اتى يقفوها فلم يقع لها على مسالة.

قال...: فو الله لقد لازمت باب العطارين والربض من ذلك الوقت الى الان، فما وقعت لها على خبر ولا ادري اسماء لحستها ام ارض بلعتها، وان قلبي منها لاحر من الجمر. وهي خلوة التي يتغزل بها في اشعاره.

ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سبيله الى سرقسطة في قصة طويلة [1]

تعلقت قلوب رجال الاندلس بالجواري، حتى عكف اكثرهم عن الزواج والاكتفاء بحب الشقراوات، وقد امتلئت قصور الاندلس باعداد من الجواري تباهيا وتمتعا بهن وشهد عصر الخلافة الاندليسية تطوراً مميزاً في تحرير المرأة الاندليسية جراء اختلاطها بالصقليات التي جلبهن عبد الرحمن بن محمد الثالث (الناصر لدين الله (حكم 300 – 350هـ) لانه كان معجب بجمالهن، وقد بلغ عدد النساء الصقليات في قصر الزهراء بتقدير رواية تاريخية 6300 جارية[2] ورواية اخرئ تقول 6705[3].

اتخذ عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله الثالث الجواري في قصر قرطبة وهو ولد من جارية اسبانية "امه ام ولد روبية تسمئ مزينة"[4] وذكرها نص اخر "امه ام ولد

(1) ابن حزم القرطبي / طوق الحمامة / ص169.

(2) ابن عذاري المراكشي / البيان المغرب / ج2 / ص232.

(3) ابن الخطيب الغرناطي / ، اعمال الاعلام فيمن يوبع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تحقيق سيد كسروى حسن، دار الكتب العلمية، ط1 (بيروت 1424 هـ،2000م.

(4) مؤلف مجهول / تاريخ الاندلس / ص201.

تسمى مزنة[1] واحب جارية رومية تدعى مرجانة كما اكد النص وهي من " السريات المفضلات عليهن لفضل الادب كان لها ورشاقة حركة يستحسنها حكثيرا ويعجب بخدمتهن ويكثر تقريبها وتعجبه لباقتها وقد كانت اوتيت من اللبابة والفظاظة واللطف ولاحلاوة وجمال الصورة وعذوبة المنطق وملاحة الاشارة وحلاوة الخلافة افضل ما اوتيته انثى،فكانت صواحبها يستحسدنها ذلك وينافسنها فيه فتتقوى باستعمال ذلك وتترقى، وتزدادا به عند الناصر لدين الله خطوة الى ان عزتهن جميع واعتلت على عظيمتهن الحرة القرشية، فنالت ذروة السيادة وتفردت باثرت الخليفة مولاها "[2]

كما اورد ابن الابار البلنسي صفات ايلسيدة مرجانة بقوله "كانت اديبة لطيفة المقاصد، وهي التي جرة لها مع فاطمة بن منذر القرشية، زوج الناصر في بيعها ليلتها منه بعشرة الالف دينار، ماهو مذكور في تاريخ ابن حيان، وغنتها مرجان ينضم سنح في ذلك:

ياليلة لو انها تباع لي او تشتري	شريتها بكل ما اطلبه من المنى[3]

تزوج عبد الرحمن بن محمد السيدة فاطمة بنت المنذر بن محمد بن عبد الرحمن الثاني وهي من الحرائر القرشيات.[4]

اهتم الخليفة الناصر بالجلوس في قصره بقرطبة بين نسائه وجواريه للتمتع والراحة، وقد نقل لنا نص تاريخي فريد بخلوة الناصر بالنسوة بقوله " انفرد يوم كراحته في

---

(1) ابن عذاري المراكشي / البيان المغرب / ج2 / ص156.

(2) ابن حيان القرطبي / المقتبس / تحقيق:بدروا جالميتا وكوير انطي / نشر المعهد الاسباني العربي للثقافة / مدريد 1979م/ ج5،ص9.

(3) ابن الابار القضاعي / ابي عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي بكر الاندلسي البلنسي / ت658هـ التكملة لكتاب الصلة، ضبط جلال الاسيوطي، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت 1429هـ/ 2008م المجلد 5 / 269 ترجمة رقم 355.

(4) ابن حزم القرطبي / ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم، ت456هـ / جمهرة انساب العرب / ضبطها عبد المنعم خليل ابراهيم، دار الكتب العلمية / ط5 / بيروت / 1430 هـ / 2009م / ص100.

بعض رياض القصر بمن استدعى من جواريه، فقضى وطراً من لذته وطرب الى التحول الى حرته السيدة القرشية بنت الامير المنذر عن ابيه وكانت من سروات النساء قد شغف بها باول خلافته قبل من استخطاه بعد من كرمائه لما كانت من اول نسائه، تزوجها بقصر الخلافة اذا كان مسكنه فيه في كنف جده الامير عمها، تبناها بعد مهلك اخيه المنذر والدها وكفلها واسكنها معه واحسن اليها، فنكحها الناصر لدين الله لما صار الامر اليه وحظيت عنده وولد له منها ابنه ابو الحكم المنذر بن عبد الرحمن المعروف الى اليوم بابن القرشية وهو نسله، وكانت من اكرم عقائل بني امية واسراهم الا فيما لاتسلم النساء فيه من ضعف الراي وغلط الحجاب [1]

(1) ابن حيان القرطبي / المقتبس / تحقيق جالميتا، ص9-10.

احصائية تراجم

عن النساء الحرائر والجواري الاندلسيات الواردة

في المصادر الاندلسية

احصائية تراجم عن النساء الحرائر والجواري الاندلسيات الواردة في المصادر الاندلسية

قائمة النساء الاندلسيات:

عند ابن الابار القضاعي الاندلسي البلنسي، ت658هـ (التكملة لكتاب الصلة)

ت	اسماء النساء الاندلسيات	تعريفات
1	خالة، جارية معاوية بن صالح الحضرمي	قاضي بالاندلس في حكم عبد الرحمن الداخل اوفد لجلب اخته ام الاصبع، وهبها له يوسف بن عبد الرحمن الفهري اخذ والي الاندلس ترجمة 3532
2	حيدة بنت معاوية بن صالح الحضرمي	تزوجها زياد بن عبد الرحمن اللخمي (شبطون) وانجب منها زياد (ترجمة 3532)
3	عابدة الالمدينة	ام ولد حبيب بن الوليد المرواني الملقب بدحون / ركانت جارية سوداء من رقيق المدينة، تروي مالك بن انس وهبها لدحون في رحلته الى الحج محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك ابن عمه، فقدم بها الى الاندلس (ترجمة 3533)
4	حسانة بنت ابي المخشي عاصم بن زيد بن يحيى بن حنظلة بن علقمة بن عدي بن زيد العبادي التميمي	شاعرة مدحت الامير عبد الرحمن بن الحكم (الاوسط) (ترجمة 3534)
5	الشفاء	جارية الامير عبد الرحمن بن الحكم (الاوسط) اعتقها وتزوجها وشيدها مسجداً باسمها في وسط الربض الغربي من قرطبة (ترجمة 3535)
6	فضل المدينة	كانت حاذقة بالغناء، صاحبة علم المدينة، وكانت جارية لاحدى بنات هارون الرشيد، اصلها من بغداد وسكنت المدينة المنورة ثم اشتريت للامير عبد الرحمن الثاني وسكنت دار المدينات بقصر الامارة في قرطبة (ترجمة 3536)
7	قلم	كانت اندليسية الاصل من روم الشكنس، تدربت الغناء بالمدينة واصبحت جارية عند الامير عبد الرحمن الثاني، وهي

ت	اسماء النساء الاندلسيات	تعريفات
		اديبة شاعرة رواية للشعر حافظة للاخبار، عالمة بالادب تزوجها الامير والجبت له ابان ابي الوليد، ام ولد (ترجمة 3537)
8	طروب	جارية للامير عبد الرحمن الثاني، وهي ام ولده عبد الله، والغالبة على قلبه، شيد مسجد ا باسمها في صدر الربض الغربي بقرطبة (ترجمة 3538)
9	فخر	جارية الامير عبد الرحمن الاوسط تزوجها وهي ام ابنه بشر ابي الوليد الاديب الشاعر (ترجمة 3539)
10	حمدونة بنت علي بن نافع زرياب المغني	تزوجها هاشم بن عبد العزيز، وهي متقدمة على اختها عليه (ترجمة 3540)
11	علية بنت علي بن نافع زرياب المغني	طال عمرها بع اختها حمدونة (ترجمة 3541)
12	متعة	جارية الاديب الفنان علي بن نافع زرياب، كانت رائعة الجمال، اديبة علمها زرياب الغناء واطربت مجلس الامير الحكم الربضي واعجب بجمالها وانشدته: يامن يعطي هواه من ذا يغطي النهار قد كنت املك قلبي حتى علقت فطارا ياويلتي اتراه لي كان او مستعار بابي قريشي خلعت فيه العذرا (ترجمة 3542)
13	البهاء بنت الامير عبد الرحمن بن الحكم (الاوسط)	كانت من خير نسائهم من اهل الزهد والتبتل وةكانت تكتب الصحف وتحبسها للمؤمنين، وينسب لها مسجد البهاء في ريض الرصافة في قرطبة ت.305 هـ (ترجمة 3543)
14	عبدة بنت بشر بن حبيب بن الوليد بن حبيب المروالية	تروي الشعر واخياره عن ابيها (ترجمة 3544)
15	مصابيح	جارية الكاتب ابي حفص عمر بن قليل،تعلمت من زرياب، ذكرها ابو عمر بمن عبد ربه القرطبي (العقد الفريد) وكتب به

ت	اسماء النساء الاندلسيات	تعريفات
		الى مولاها لما صد عن سماعها من ابيات: يامن يضن بصوت الطائر الغرد ماكنت احسب هذا الضن من احد لو ان اسماع اهل الارض قاطبة اصغت الى صوت لم ينقض ولم يزد
16	ام الحسن بنت ابي لواء سليمان بن اصبغ بن عبد الله بن وانسوس بن يربوع المكناسي	مولى سليمان بن عبد الملك وقد روت عن باقي بن مخلد، سمعت منه، وصحبته، وقرات عليه كتاب الدهور،وذكرها المورخ الرازي وقد حجت وسمعت الفقه، الحديث، وسكنت فحص البلوط ولها مسجلا، ورفقتها بالحج ستة نسوة اندليسيات (ترجمة 3546)
17	رقية بنت الوزير تمام بن عامر بن احمد بن غالب بن احمد بن تمام بن علقمة	مولى عبد الرحمن بن ام الحكم الثقفي، دخلت القصر بقرطبة، وكانت كاتبة عند الامير المنذر بن محمد (ترجمة 3547)
18	ام الوليد بنت النضر بن مسلمة بن وليد ابن ابي بكر بن عبيد الله بن علي بن عياض الكلابي	والدها القاضي الجماعة عند الامير عبد الامير عبد الله بن محمد ثم صار وزيرا، وكانت زظاهدة صالحة (ترجمة 3548)
19	قمر البغدادية	جارية ابراهيم بن الحجاج اللخمي صاحب اشبيلية كانت من الفصاحة والبيان والمعرفة، تنشد شعرا في مولاها تمدحه. مافي المغارب من كريم يرتجي الا خليف الجود ابراهيم ذكرها السالمي وانشدها عدة اشعار، فها الشوق الى العراق: اها على بغدادها وعراقها وظبائها والسحر في حداقها ومجالها عند الفرات باوجه تبدو اهلتها على اطواقها متبحرات في النعيم كانما خلق الهوى العذري من اخلاقها

ت	اسماء النساء الاندلسيات	تعريفات
		نفسي الفداء لها فاي محاسن في الدهر تشرق من سنا اشراقها (ترجمة 3549)
20	جؤذر	جارية ابن العجوز، كانت في قرطبة من القينات المحسنات، ولمامات مولها، جاء اخوها يطلب منها كتب،وكانت بارعة اللسان وحاذقة العقل وادبية بارعة (ترجمة 3550)
21	زمرد	الكاتبة الحاذقة من الجواري ت 336هـ ترجمة 3551)
22	مرجان ام الحكم المستنصر بالله	زوجة الخليفة عبد الرحمن الناصر ام ولده الحكم الثاني وكانت اديبة لطيفة المقاصد، واشتراها بمبلغ عشرة الالف دينار وغنت لمواما الناصر في ذلك يالية لو انها اتباع لي اوتشترى شريتها بكل ما اطلبه من المنى (ترجمة 3552)
23	لبنى	جارية وكاتبة عند الخليفة الحكم الثاني، وكانت كاتبة ابيه، وهي حاذقة بالكتابة والعروض،وخطاطة واديبة نحوية وشاعرة بصيرة، ولها مشاركات علمية، ت376هـ (ترجمة 3553)
24	كتمان الكاتبة	جارية وكاتبة في قصر الخلافة عند عبد الرحمن الناصر في قرطبة من طبقة مزن (ترجمة 3554)
25	عائشة بنت ابراهيم بن موسى بن جميل الاندلسي التدمري	حدثت عن ابيها الذي استوطن مصر (ترجمة 3555)
26	جارية الحكم المستنصر بالله	عاشت بقصر الخلافة بقرطبة، وصفة غلامية،ذكية كيسة، كاتبة مهمة،تعلمت التعديل وخدمة الاسطرلاب وعلم الفلك خلال ثلاثة اعوام، وعجب الخليفة الحكم والزمها

ت	اسماء النساء الاندلسيات	تعريفات
		خدمة ما تعلمته في داره واكرمها. (ترجمة 3556)
27	شعاع	جارية اندليسية ابن قاسم بن اصبغ البياني مولاها وهي من الصالحات، ولها مسجد ينسب بها في ربض الرصافة بقرطبة. (ترجمة 3557)
28	عائشة الاندليسية	زوج عبد الله عمر الاندلسي، رحلت وحجت (ترجمة 3558)
29	خولة بنت علي بن طالب بن عبد الله أبن تميم الفهرية	من مدينة باجة، وكانت أديبة بالبيان والعروض (ترجمة 3559)
30	حفصة بنت حمدون بن حيوة	من مدينة وادي الحجارة، اديبة عالمة شاعرة ذكره كتاب الحدائق لابن فرج، ومن شعرها ياوحشتي لاحبتي ياوحشة متمادية ياليلة ودهتهم يالية هي ماهية (ترجمة 3560)
31	بركة	جارية اعتقها ابن القاسم الفقيه كاتب القاضي اسلم بن عبد ألعزيز، وهي امراءة صالحة خيرة، وهي ام الفقيه ابي محمد عبد الله بن احمد الصابوني وبها كان يعرف. (ترجمة 3561)
32	اسماء بنت غالب مولى الناصر عبد الرحمن بن محمد	حرة بنت غالب فارس الاندلس، تزوجها الحاجب المنصور العامري، بعد الوزير عبد الرحمن بن مبشر وطلقها في عهد الخليفة الحكم الثاني، ولم يفارقها المنصور العامري في حياته على الرغم من مقتل والدها لمنافسة في السلطة في 4 محرم 361هـ، من صوالح النساء، ذات جمال بارع، وادب صالح انشدات مقتل والدها غالب وكفنته وبكت عليه بعد عرض راسه عليها. (ترجمة 3562)
33	نظام الكاتبة	جارية بارعة بليغة مدركة، محبرة للرسائل، انشئت خطابا

ت	اسماء النساء الاندلسيات	تعريفات
		للمظفر عبد الملك بن المنصور العامري للتعزية لابيه وجدد له العهد بولاية الحجابة عام 392هـ. (ترجمة 3564)
34	هند بنت عبد الرحمن الناصر	امتازت بالشرف والجلالة، والادب، والرجاحة وكناها ابن جبان القرطبي – بعجوز الملك – وعمرت طويلا ت 399هـ. (ترجمة 3564)
35	اميمة الكاتبة	جارية الحسين بن جي وخطيبته التي تزوجها بعده الفقيه القرشي المقري، وكانت تقوم بحراسة دار المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار عند غيابه به بدار الحسين بن جي.، (ترجمة 3565)
36	نزهة الذهبية	جارية عند الكاتب ابي عبد الله بن وهب الحميري، كاتب الوزير ابي محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة، وحفظ تنشد الاشعار، وتورد الحكايات والاخبار، وحفظ ايام العرب، وحفظ الامثال والنسب عند اهل المشرق والمغرب الاسلامي. (ترجمة 3566)
37	اشراق السويداء العروضية	جارية ابي المطرق بن غلبوت القرطبي الكاتب، سكنت مدينة بلنسية، درست عن مولاها اللغة والادب العربية ايام اقامته في قرطبة، وبرزت في العروض واوزان الشعر وقراءات كتب عديدة منها الامالي للقالي والكامل للمبرد توفيت في مملكة دانية عند السيدة اسماء ابنة مجاهد العامري وزوجها المنصور ابي الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور العامري رئيس بلنسة، بعد وفاة مولاها في بلنسة سنة 443هـ.(ترجمة 3567)
38	عتيق الاقوبية	كانت المرأة الصالحة، تحفظ العلم والادب وتفننت، اخذت عن ابيها فائز القرطبي علم التفسير، واللغة والشعر. وعن

ت	اسماء النساء الاندلسيات	تعريفات
		زوجها الوزير الاقويبني الفقه والرقاق، وخرجت من قرطبة الى دانية لمقابلة ابو عمر والمقري الداني صاحب القراءات السبعة عام 444 هـ، وحجت وتوفيت بمصر عام 446هـ
39	العبادية	جارية المعتضد عباد بن محمد اهداها الامير مجاهد العامري من دانية، وكانت اديبة وكاتبة شاعرة لغوية، سكنت اشبيلية وفي احد الليالي سهر المعتضد لمشكلة وهي نائمة فانشدها: تنام ومدنفها يسهر وتصبر عنه ولايصبر فاجابته: لئن دام هذا وهذا به سيهلك وجدا ولايشعر (ترجمة 3569)
40	غالية المنى	جارية اندليسية متادبة شاعرة انشدت صاحب مدينة المرية ابن صمادح بقولها: سل هو غاية المنى فقالت من كسا جسمي الضنى واراني مد لها سيقول الهوى انا وعرضت على بن ابن الغراء الخطيب يستختبرها بالشعر فسالها عن اسمها فقال: سل هوى غاية المنى من كسا جسمي الضنا فقالت تخبره: واراني متيما سيقول الهوى انا فعلم ابن صمادح بذلك فاشتراها (ترجمة 3570)
41	زينب بنت ابي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد ابن عبد البر النميري	سكنت شرق الاندلس مع والدها، وكانت من صوالح النساء وهي ام سبطة لي محمد عبد الله بن علي اللخمي. (ترجمة 3571)
42	حبيبة بنت عبدالعزيز بن موسى بن طاهر بن مناع	تعرف بطونة زوجة ابي القاسم بن مدبر، سمعت من علماء الاندلس، وكانت جيدة الخط ضابطة لما تكتسبه، ولدت سنة 437هـ.وتوفيت سنة 506هـ حسب ما ذكره ابنها بكر.

ت	اسماء النساء الاندلسيات	تعريفات
		(ترجمة 3572)
43	اسماء بنت ابي داود سليمان بن نجاح المقري	من اهل بلنسية، روت عن ابيها وشاركت مع بعض شيوخه، وتزوجها احمد بن محمد تلميذ والدها واسكنه بدار وزفها اليه. (ترجمة 3573)
44	منتحونة بنت جعفر بن جعفر	من مدينة مرسية وتكنى ام الفتح،لها في قيان الاندلس كتاب عارضت به كتاب الاغاني لابي الفرج الاصهباني. (ترجمة 3574)
45	صواب	زوج ابي اسحاق بن اسماعيل القبري الزاهد، رحلت معه الى المشرق واديا فريضة الحج، وعادا الى الاندلس وتوفيا ودفنا في مقبرة الريض بقرطبة، وكانت عادية صالحة اديبة. (ترجمة 3575)
46	ام شريح القرى	من مدينة اشبيلية، قارئة القران على الزائرين بقراءة نافع تعلمت من زوجها ابي عبد الله بن شريح، ويقراء ابو بكر عياض بن بقي بعلها ويفخر بها امام ابنها شريحا. (ترجمة 3576)
47	تميمة بنت يوسف بن تاشفين	اخت علي بن يوسف المرابطي، تكنى ام طلحة، وكانت كاملة الحسن. راجحة العقل، مشهورة بالادب والكرم، سكنت مدينة فاس، شاعرة انشدت ابيات: هي الشمس مسكنها في السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا فلن تستطيع اليها الصعودا ولن تستطيع اليك نزولا (ترجمة 3577)
48	زينب بنت ابراهيم بن تيفلويت	زوج ابي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين، من اهل الخير والدين، والنوافل، والتصاون والصداقات وافعال المعروف، حافظة للشعر، وانشادها ابو اسحاق الخفاجي بابيات: مشهورة في الفضل قدما والنهى والنيل شهرة غرة في ادهم

ت	اسماء النساء الاندلسيات	تعريفات
		تولي الايادي عن يد نزل الذي منها بمنزلة المحب المكرم ملكت به الاحراراالكرام حرة بسط المقل بها يمين المنعم (ترجمة 3578)
49	حواء بنت ابراهيم بن تيعلويت	كانت مثل اختها في الصلاح والخير. (ترجمة 3579)
50	فاطمة بنت عبد الرحمن بن محمد بن حبوة الوشقي المقري	من اهل مدينة وشقة، طالبة للعلم، لها سماع في مدينة دانية من المقرئين، كما كان ابوها ابو زيد مقرئا بسرقسطة. (ترجمة 3580)
51	اسماء بنت علي بن خلف بن احمد اللخمي الرشاطي	من اهل اريولة ذكرها ابو محمد الرشاطي. (ترجمة 3581)
52	ورقاء بنت ينتان الحاجة	من مدينة طليطلة، سكنت مدينة فاس بتالمغرب، وكانت اديبة شاعرة صالحة، حافظة للقران بارعة الخط، ت540هـ. (ترجمة 3582)
53	اسماء العامرية	من مدينة اشبيلية، كتبت رسالة الى الخليفة الموحدي ابي محمد عبد المومن بن علي ذكرت بها اليه بسلفها العامري، وتساله عن رفع الانزال عن دارها، والاعتقال الى مالها، وباخرها ابيات: عرفنا النصر والفتح المبينا بسيـــــدنا امير المؤمنينا اذا كان الحديث عن المعالي رايت حديثكم فيها شجونا ومنه: ورثتم علمه فعـــــلمتوه وصنتم عـــهد فغدا مصونا (ترجمة 358)
54	عزيزة بنت القاضي ابي محمد بن جبان	من مدينة قرطبة، كاتبة اهتمت بما رواه ابو القاسم ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة وذلك في عام 551هـ. (ترجمة 3584)
55	ام هناء بنت القاضي ابي محمد عبد	من مدينة غرناطة وهي ام ابي جعفر حمد ابن الحسن بن

ت	اسماء النساء الاندلسيات	تعريفات
	الحق ابن غالب بن عطية	حسان القضاعي الطبيب، سمعت اباها، وكانت من اهل الفهم والعقل، ولها تاليف في القبور تولى اباها قضاء المرية، ومرة دخل داره وعيناه تدمعان وجدا لمفارقة وطنه. فانشدته ابياتا: ياعين صار الدمع عندك عادة تبكين في فرح وفي احزان وعندما نكب والدها على بعض امراء لمتونة وغرب ابوه غالب الى السوس فانشدتهما: جاء الكتاب من الحبيب بانه سيزورني فاستعرت اجفاني غلب السرور علي حتى انه من فرط عظم سرتي ابكاني ياعين صار الدمع عندك عادة تبكين في فرح وفي احزان فاستقبلي بالبشر يومخ لقائه ودعي الدمع لليلة الهجران اوردها ابن مرزوق القيرواني في شرحه لشعر المتاني الذي سماه بالمكتفي. (ترجمة 3585)
56	ترهون بنت القليعي	والدها ابو بكرلا محمد بن احمد بن خلف بن عبد الملك بن غالب الغساني من غرناطة، كانت اديبة، شاعرة، صاحبة فكاهة، ودعابة معروفة بها، وقرات عند ابي بكر المخزومي الاعمي فدخل ابو بكر الكتندي، فقال يخاطب المخزومي الاعمي: لو كنت تبصر من لجالسه. فقالت نزهون: لغدوت اخرس من خلاخله البدر يطلع من ازرته والغصن يمرح في غلاله وكانت مجانة بالشعر (ترجمة 3586)
57	رشيدة الواعظة	واغظة بالنساء تجول في مدن الاندلس وتذكرهن وكان لها صيت وانصاف. (ترجمة 3587)

تعريفات	اسماء النساء الاندلسيات	ت
جارية ابي محجمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي، اديبة شاعرة، خاطبها ابو عامر بن ينق للحضور عندها بعودها. ياهند هل لك في زيارة فتية نبذوا المحارم من الطرز الاول فكتبت اليه على ظهر رقعته: ياسيدا حاز العلا عن سادة شم الانوف من الطراز الاول حسبي من الاسراع نحوك انني كنت الجواب مع السود المقبل (ترجمة 3588)	هند	58
من غرناطة مشهورة بالادب (ترجمة 3588)	فاطمة الارجية	59
زوج ابي عبد الله النميري، وكانت من عفائف النساء وصوالحهن، تروى عن ابيها، حدثت بمختصر الطليطلي بالفقه، ت 570هـ. (ترجمة 3590)	مسعدة بنت ابي الحسن علي بن احمد بن الباذش	60
من مدينة شاطبة، روت ابيها واجازها، متدينة صوامة قوامة، ت 580هـ. (ترجمة 3591)	زينب بنت ابي الحسن عباد بن سرحان المعافري	61
غير معروف اسمها تظلمت من ولاة بلدهه وصاحب خراجها فكتبت الى الخليفة المنصور ابي يوسف الموحدي شعرا قدان ان تبكي العيون الابية ولقد ارى ان الحجارة باكية ياقاصد المصر الذي اذا وقفت ببابه ياراعيا ان العية فانية ارسلتها هملا ولامرعى لها وتيكتها نهب السباع العافية شلب كلا شلب وكانت جنة فاعادها الطاغون نارا حامية خافوا وما خافوا عقوبة ربهم والله لاتخفى عليه خافية وقد القيت الابيات يوم الجمعة على مصلى الخليفة، فلما قضى الصلاة وتصفحها: عزل الوالي والقاضي وصاحب الخرج بعد بحثه عن القصة؟، ووقوفه على حقيقتها، وامر	الشلبية الاديبة	62

ت	اسماء النساء الاندلسيات	تعريفات
		للمراءة بصلة. (ترجمة 3592)
63	حفصة بنت الحاج الركوني	من مدينة غرناطة، كانت اديبة شاعرة، وكتبت الى بعض الخلفاء تساله صفاص. ياسيد الناس يامن يؤمل الناس رفده امنن على بصـــك يكون للدهر عده تخط يمنـــاك فيه والحمد لله وحده (ترجمة 3593)
64	حمزة بنت زياد بن عبد الله بن بقي الصوفي المؤدب	من مدينة وادي اش، وكانت اديبة شاعرة انشدت في نزهة بالرملة من نواحي وادي اش، فراءت وجه وسيم اعجبها شعرا. اباح الدمع اسراري بوادي به للحسن اثار بوادي فمن نهلر يطوف بكل روض ومن روض يطوف بكل وادي ومن بين الظباء مهاه رمل سبت لبي وقد ملكت قيادي لها لحظ ترقده لامـــــر رايت البدر في جنح الدادي كان الصبح مات له شقيق فمن حزن تسر بل بالحداد (ترجمة 3594)
65	مهجة بنت ابن عبد الرزاق	من بنشر ضواحي غرناطة، كانت اديبة شاعرة من طبقة نزهون القليعة. (ترجمة 3595)
66	فاطمة بنت ابي على حسين محمد الصدفي	من مدينة مرسية، ودار سلفها سرقسطة، تركها ابوها عند خروجه غازيا الى كتندا في حيز الفطام من رضاعها، وكانت صالحة زاهدة، تحفظ القران وتقوم عليه، وتذكر كثيرا من الحديث في الادعية وغيرها،وكانت حسنة الخط، تزوجها صاحب الصلاة بمرسية ابو محمد عبد الله بن موسى بن برطلة فولدت له ابنه ابو بكر عبد الرحمن والمجبت له اخرين. ت590هـ، وعمرها اكثر من الثمانين.

ت	اسماء النساء الاندلسيات	تعريفات
		(ترجمة 356)
67	زينب ابنت الخليفة ابو يعقوب يوسف بن الخليفة ابي محمد عبد المؤمن ابن علي	انليسية تزوجها ابن عمها ابو زيد بن ابي حفص بن الخليفة عالمة صائبة الراي، معروفة بالتفوق على النساء اهل زمانها في علم الكلام. (ترجمة 3597)
68	فاطمة بنت سعد الخير الانصاري البلنسي	سمعها ابوها باصبهان وببغداد وحدثت بمصر ذكرها ابن نقطة ت 600هـ. (ترجمة 3598)
69	فاطمة بنت ابي القاسم عبد الرحمن بن محمد بن غالب الشراط	من مدينة قرطبة، اخذت عن ابيها قراءة نافع وختمت عليه القران غير مرة، وحفظت كتب الصحاح وغيرها شعرا في الزهد، قراءت الرقان على الزهاد وحدثوا عنها ت 613 هـ ودفنت بمقبرة ام سلمة مع ابيها واخوانها. (ترجمة 3599)
70	ام العز بنت محمد بن علي بن ابي غالب العبدي	من مدينة دانية،تروى عن ابيها واصحابه وعن زوجها ابي الحسن بن الزبير وغيره، وكانت تحسن القراءات السبع سمعت صحيح البخاري من ابيها بقراءتها مرتين، ت 616 هـ. (ترجمة 3600)
71	مهجة بنت الخطيب ابى محمد عصام ابن الخطيب ابيَ جعفر بن احمد بن محمد ابن ابراهيم بن يحيى	اخذت عن والدها، وهي اديبة شاعرة ت.617 او بعدها في قرطبة. (ترجمة 3601)
72	زينب بنت محمد بن احمد بن احمد بن عبد الرحمن الزهريام المعز بنت احمد بن علي بن هذيل	من مدينة بلنسية. وتدعى عزيزة والدها يعرف بابن محرز. وكانت صالحة، وخطها صعيفا، وعمرت طويلا واسنت وتوفيت سنة 635هـ ودفنت بمقبرة باب بيطالة وقد بلغت الثمانيين عاماً، مولدها عام 555هـ. (ترجمة 3602)

تعريفات	اسماء النساء الاندلسيات	ت
مـن بلدية بلنسية، اخذت قراءة ورش، وبرعت في حفظ الاشعار والتمثل بها، توفيت في شاطبة سنة 636هـ. (ترجمة 3603)	ام المعز بنت احمد بن علي بن هذيل	73
من مدينة قرطبة، وتعرف بسعدونة ولها روايات عن ابيها، وجدها، وخاليها، وكانت اديبة وشاعرة، وساقها قول بعض الادباء الغرناطيين بصفة نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابيات اخرها: سالثم التمثال اذا لم اجد للثم نعل المصطفىء من سبيل فزادت عليه بقولها: لعلني اخطى بتقبيله في جنة الفردوس اسنى مقيل في ظل طوبى ساكنا امنا اسقى باعواس من السلسبيل وامسح القلب به علة يسكن ماجاش به من غليل فطالما استسقى باطلال من يهواه اهل الحب من كل جيل توفيت في ماقلة من سنة 640ه÷. (ترجمة 3604)	ام السعد بنت عصام بن احمد بن محمد ابن ابراهيم بن يحيى الحميري	74
من مدين غرناطة، واصلها من ثغر لاردة وهو ابن عم ابي الحجاج يوسف ابن ابراهيم بن عثمان الثغري، وتكنى ام علاء، وكان ابوها ابو محمد قاضيا باوريولة، توفي وتركها يتيمة صغيرة فنشاءت بمرسية، وتعلمت القران وبرعت في ذلك. وجاد خطها، وعلمت في ديار الملوك عمرها كله وخلفت بنتان لها: كبرى وصغرى، انتقلت الى فاس ثم عادت الى غرناطة، وبها علمت القران لابي حامد الغزالي، توفيت سنة 647ه÷ ودفنت بمقبرة من المصلى خارج تونس.	سيدة بنت عبد الغني بن علي بن عثمان العبدري	75

اورد الحميدي الميورقي مبحثاً في باب النساء وهن.

1. صفية بنت عبد الله الربى، وهي اديبة شاعرة موصوفة بحسن الخط، وقد عابت امراءة لسوء خطها فقالت:

وعائبة خطي فقلت لها اقصرى | فسوف اريك الدر في نظم اسطرى
وناديت كفي كي تجود بخطها | وقربت اقلامي ورقي ومحبري
فخطت بابيات ثلاث نظمتها | ليبدو خطي وقلت لها انظرى

ت 417 هـ وهي دون ثلاثين سنة [1]

2. مريم بنت ابي يعقوب الفصولى الشلبي، الحاجة اديبة شاعرة جزلة مشهورة كانت تعلم النساء الادب وتحتشم لدينها الاسلامي وفضلها، وعمرت طويلا وسكنت اشبيلية وانشدت ابياتا:

وما ترتجى من بنت سبيعين حجة | وسبع كنسج العنكبوت المهلهل
تدب دبيب الطفل تسعى الى العصا | وتمشى بها مشي الاسير المكبب

وكتبت الى ابن المهند الذي بعث لها دنانير:

من ذا يجاريك في قول وفي عمل | وقد بدرت الى فضل ولم تسل
مالي بشكر الذي نظمت في عنقي | من اللالى وما دما اوليت في قلبي
حليتني بحلى اصبحت | بها على كل انثى من حلى عطل
لله احلاقك في الشعر من غارت بدائعه | يلد من النسل غير البيض او الاسل [2]

---

(1) ابي عبد الله محمد بن ابي نصر نصر فتوح بن عبد الله الازدى / جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة 2008م، ص412، ترجمة 985.

(2) المصدر السابق ص 413 ترجمة 986.

3. العسانية شاعرة تمدح الملوك مشهورة، كانت ببجانة وانشدت الامير خيران العامري صاحب المرية تعارض بها ابا عمر بن دراج القسطلي في قصيدته التي اولها:

اتجزع ان قالوا ستظعن اظعان | وكيف تطبق الصبر ويحك ان بانوا
وما هو الا الموت عند رحيلهم | والا فعيش تجتني منه احزان
عهدتم والعيش في ظل وصلهم | انيق وروض الدهر ازهر ريان
ليالي سعد لايخاف على الهوى | عتاب و لايخشى على الوصل هجران
ويسطو بنا الهو فتعتنق المنى | كما اعتنقت في سطوة الريح افنان
الا ليت شعري والفراق يكون هل | تكونون لي بعد الفراق كما كانوا
لك الخير قد اوفى بعهدك خيران | وشراك قد اواك عز وسلطان[1]

(1) الحميدي الميورقي،جذوة المقتبس، ص413، ترجمة 987.

النساء الاندلسيات الحرائر والجواري المذكورات عند ابن حزم القرطبي ت456هـ

(كتاب طوق الحمامة في الالفة والالاف)[1] 56

بنت زكريا بن يحيى التميمي ص93.

خلوة امراة ص41.

دعجاء ص17.

طروب (ام عبد الله بن عبد الرحمن بن الحكم) ص17.

صبح (ام هاشم المؤيد بالله ص 17,60.

عاتكة بنت قند ص 160.

غزلان (زوج محمد بن عبد الرحمن ص17.

نغم (جارية) ص127.

هند (امراة متعبدة) ص178

واحد (زوج المظفر بن عبد الملك) ص18.

وصف ابن الخطيب الغرناطي ت776هـ في كتابه "اللمحة البدرية في الدولة النصرية" المراة الغرناطية الاندلسية بعبارات حساسة وعذوبة الفاظ مشوقة تثير الرغبة وتعبر عن تطور الذي حل في غرناطة من اه9تمام بوسائل الزينة وتنافس مع الاسبانيات النضرانيات ومدى الحرية التي تمتعت بها الغرناطية بقوله:

"وحريمهم حريم جميل موصوف باعتدال السمن وتنعم الجسوم واسترسال الشعور ونقاء الثغور وطيب الشذا وخفة الحركات ونبل الكلام وحسن المحاورة، الا ان الطول يندر. وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد، والمظاهرة بين المصبغات، والتنافس في الذهبيات والديباجات، والتماجن في اشكال الحلي الى غاية بعيدة"[2]

---

(1) نشر دار الجيل، بيروت بلا ت) ص41.

(2) نشر دار الافاق الجديدة ط2 (بيروت 1978) ص41.

ملحق: احصائية عن ابناء الامراء والخلفاء من المصادر الاندلسية.

الحاكم الاندلسي	الذكور	الاناث	امه
الامير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل،صقر قريش)			راح، ام ولد من سبى زنانة
الامير هشام بن عبد الرحمن (الرضى)			حورا (مؤلف مجهول)
الامير الحكم بن هشام (الربضي)			جمال (عند ابن عذري المراكشي) زخرف بنت قارله بن سليمان الرومي اهلاها لعبد الرحمن الداخل
الامير عبد الرحمن الحكم (الثاني الاوسط)			حلاوة من مولدات البربر
الامير محمد بن عبد الرحمن			تهر
الامير المنذر بن مح			اثل (ام ولد)
الامير عبد الله			عشتار
والخليفة الامير عبد الرحمن بن محمد (الناصر لدين الله)			مزينة او مزنة رومية
الخليفة الحكم بن عبد الرحمن (المستنصر بالله)			مرجان او مرجانة (ام ولد)
الخليفة هشام بن الحكم (المؤيد بالله، الثاني)			صبح البشكنسية (حظية وزوجة الخليفة الحكم الثاني)

اروع كلمات الحب العذري والحنين من قلب اندلسية الى العشاق من الاديبة برقة وعذوبة الكلمات الرقيقة اللذيذة على قلب المحب وهي حفصة بنت الحاج الركون كما (قال ابن سعيد في كتابه بالطالع السعيد: كتب حفصة بنت الاج الركون المشهورة بالادب

والجمال الى من كل بنيها وبنيه في ذلك الزمن منحبة واتصال: المشهورة بـالادب والجمـال الى من كان بنيها وبنيه في ذلك الزمن محبة واتصال:

ازورك تــــزور فــــان قلبــــــــــــي ... مــــا الى ماشــــئتم ابــــدا يميــــل
وقــــد امنــــت ان تظمــــا وتــــضحى ... اذا وافــــى اليــــك بنــــى القــــول
فثغــــرى مــــورد العــــذاب زلال ... وفــــرع ذوائبــــى طــــل ظليــــل
فعجــــل بــــالجواب فمــــا جميــــل ... اناتــــك عــــن تبينــــة ياجميــــل[1]

(1) عبد الملك بن حبيب السلمي الاندلسي / محاسن النساء / ص151.

المؤسسات العلمية أو المراكز التعلمية
في الثغور الاندلسية

المؤسسات العلمية أو المراكز التعلمية في الثغور الاندلسية

تمهيد :

تعد المراكز والمؤسسات الفكرية على الحدود الاندلسية الشمالية المتاخمة مع المالك النصرانية الاسبانية الشمالية وما تعرف الثغور الاندلسية الثلاث:الاعلى او الاقصى وقاعدتة سرقسطة والثغر الاوسط وقاعدتة طليطلة ومدينة سالم والاسفل او الادنى وقاعدتة قورية، من اهم مراكز الاشعاع الحضاري على اسبانيا واوربا يتفاخر به اهل الاندلس بانجازاتهم العلمية والابداعية في شتى المجالات الفكرية الانسانية والعلمية وبعلومهم وفنونهم وادابهم استطاعوا جذب اكبر عدد من النصارى في الدخول الى الدين الاسلامي او التعلق بالعادات والتقاليد والابتعاد عن ممارسات النصارى مثل الامتناع عن اكل لحم الخنزير وارتداء الملابس العربية الاسلامية واجراء عملية الختان لاطفالهم ووضع الحناء لصبغ الشعر ورسومات اليد والقدم واطلاق تسميات عربية اسلامية على ابنائهم تبركا، والاهتمام بتعلم اللغة العربية بحب وهمة وسرعة وذلك لاعجابهم بالحرف العربي، وتلفض بايات من القران الكريم وذلك اعتقادا لشفاء قلوبهم وتحقيق الرزق والبركة حتى ان ملابسهم صارت تطرز بالبسملة وسور القران الكريم القصار، ووضعوا الكوفية غطاء الراس تيمنا وحشمة وتقليدا وصاروا يتفنون في شد العمائم على الرووس ذات الذيل وضربوا عرض الحائط اغطية الراس النصرانية ذات االوان الخاصة مما اثار حفيظية رجال الكنيسة النصرانية الذين ما انفكوا على تجنيد عصابات حاقدة جندتها الكنيسة الكاثولكية لشتم الاسلام والرسول الكريم محمد (ص) بالقرب من المساجد وما يعرفون بالانتحاريين النصارى بقيادة فكتوروايليخيو ونساء انتحاريات تم تحذيرهم من هذة الممارسات الخطيرة التي لا تتناسب مع التسامح الانساني وحرية العقيدة واحترام الديانات وحمايتها في ذل الامارة الاندلسية واحراجها، وتم ابلاغ قومس قرطبة النصراني المكلف بمتابعة شوؤن الكاثوليك بتقديم النصيحة والحذر لعذة الفئة الضالة من الانتحاريين الكف عن هذة الممارسات العدوانية للاسلام لتكليف من

الامير عبد الرحمن الثاني لكن هذة العصابة لم تحترم النصحية والفرصة فتم انـزال العقوبـة بهم بعد انتظار لا جدوا منه، وظهرت فئة اضالة اخـرى اعتـبرت هـذة العـصابة الخارجـة عن القانون انهم شهداء في نظر الكنيسة التصرانية وكـانهم رمـوز للمجـرمين، لكـن هـذة الحادثة لم تؤثر اطلاقا في المجتمع الاندلسي الذي كانت روابطه متينـة علـى اسـس احـترام والتالف والمحبة والمصاهرات والتعامل الاقتصادي مع الديانات الاخـرى، وبقـت الـروابط الاجتماعيـة قائمـة علـى احـسن وجـه مثـل الامـن والاسـتقرار في الاحيـاء النـصرانية والاسواق واستمر بقاء اسماء معالم حضارية باسـم النـصارى لم ترفـع بعـد الحادثـة مثـل الشوارع والابواب والمحلات والاسواق المعروفة وهـو دليـل علـى احـترام حكـام واهـل الاندلس للنصارى واليهود، واستمر بقاء الحكم الاسلامي في اسبانيا قـرون طويلـة حتـى سنة (897هـ / 1492م) وحتى بعد سـقوط غرناطـة تعلـق الاسـلام في قلـوب النـصارى واليهود في ظل حكم الملكيين الكاثوليكيين فرناندو وايزابيللا اذ اكـدت المـصادر التاريخيـة الاسبانية بسوء ادارتهم في التعسف والاضطهاد والجرائم بحق الانسانية والتهجير القـسري وابشع انواع التعذيب بحق المسلمين من اصول اسبانية، وما محاكم التفتـيش الغاشمـة الـتي انشاتها الكنيسة الكاثولكيـة واغـدقت عليهـا الامـوال الطائلـة مـن اجـل اهانـة المجتمـع الانساني في القرن السادس عشر، وانتهكت جرائم بشعة من تعـذيب الـشباب وسـائل لم تعرفها الانسانية من قبل اذ كان يزجون بالشباب المسلم بسراديب مظلمة عفنـة لا يـشاهد فيها شي سوى بصيص نور شمعة خافت بقربة تابوت رسم عليـه صـورة امـرأة نـصرانية جيلة وعارية بالوان جذابة تبدوا وكانها حقيقة للسجين ويظن انها قدمت له هديـة وحالمـا يستلقي عليها بجسده ليرتوي من شدة التعذيب والاظطهاد والخوف واذا بالسكاكين تغـور بجسده ويلتصق مع الصورة العارية والدم يلطخ التابوت ويفـارق الحيـاة بعـد فـترة جـراء هذة الخدعة النصرانية بحق الشباب الابرياء من مواليد اسبانيا الاسلامية.

فكرت الكنيسة النصرانية بمختلف الحيل والخدع لا انسانية بحق بقايا المـسلمين بعـد سقوط غرناطة وتوقيع الاتفاقية مع الملكيين الكاثولكيين مع السلطان ابو عبد الله الـصغير اخر حكام غرناطة وتسليم مفاتيح قصر الحمراء ودونـت باللغـة الاسـبانية والعربيـة، ولا

تزال تلك الوثيقة محفوظة في المتحف الحربي بمدريد في القاعة الاندلسية وعند دخولك لها تصبح الوثيقة امامك من الجهة اليسرى مع ملابس السلطان ابو عبد الله الصغير مع طاقم فرسة لوحة تحتوي على انواع النقود الاندلسية التي سكت في اسبانيا عند مدخل الفاعة على اليمين، اقسم للقاري ان كل مسلم او نصراني اسباني او اوربي سوف يذهل ويندهش في هذه القاعة اذ لم تدمع العيون سوف ينزف القلب الم وحسرة على مجد الاسلام وحضارته والفردوس المفقود، ويستقبل المتحف الحربي الاسباني اعداداً غفيرة من السياح لمشاهدة المتحف فضلا عن وجود انواع المدافع واشكالها وحشواتها التي صنعت في غرناطة لمواجة الخطر القشتالي والاركوني وقد صنف لنا العالم المورسكي احمد ابن غتنم الحجري كتابا اسماه (كتاب العزة و الرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع) يعد الكتاب جوهرة وتحفة اندلسية في صناعة المدافع وابداعات اهل غرناطة، ويحتوي على لوحات مصورة عن انواع المدافع التي تعد مفخرة من مفاخر الاسلام في اسبانيا يتباهى بها اهل الحضارة الاندلسية

لقد شهدت الاندلس نشوء عدد كبير من المؤسسات العلمية التي اخذت على عاتقها مسؤولية نشر الثقافة الاسلامية بتعاليمها السمحة، ولتكون مراكز علمية، وقد تنوعت هذه المؤسسات وتعددت، حيث وجدت في الاندلس أماكن لم تنشأ لهذا الغرض إلا أنها شهدت نشاطاً علمياً ملحوظاً[1].

ومن اهم المؤسسات او المراكز العلمية التي لها اثر كبير في ابراز الدور العلمي في مختلف مدن الاندلس، المساجد، والكتاتيب، والرباطات، والمكتبات العامة، والخاصة فكانت هي الخيار الرئيسي الذي انتشرت عن طريقه العلوم والثقافة الاسلامية، كما كانت هناك وسائط ثقافية اخرى كقصور وبلاطات الامراء، والمنتديات العلمية في بيوتات الوزراء وعلية القوم وفي بيوتات العلماء والادباء كذلك[2].

(1) حسين، كريم عجيل، الحياة العلمية في مدينة بلنسية (بيروت، 1976 م) ط1، ص 204.

(2) حوالة، الحياة العلمية في افريقية، ج1، ص 200.

1 – المساجد

يعد المسجد اهم مؤسسة تعليمية اسلامية ودراسة هذه المؤسسة في اي منطقة من العالم الاسلامي هي دراسة المكان الرئيسي للحياة الثقافية الاسلامية. وقد قام المسجد بدوره في التعليم وحلقات العلم التي كانت تعقد في المساجد منذ عهد الرسول [صلى الله عليه واله وسلم] بدليل ماروواه البخاري قال: [بينما رسول الله صلى الله عليه واله وسلم في المسجد اذ اقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان الى رسول الله صلى الله عليه واله وسلم فرأى احدهما فرجةً في الحلقة فجلس وجلس الاخر خلفهم] (1). بالاضافة الى الدور التعبدي والعلمي فقد كانت المساجد منذ العصور الاولى وحتى وقت قريب المقر الذي تناقش فيه قضايا ومشكلات المسلمين السياسية والامنية والعسكرية وغيرها(2).

استمر المسجد في الاندلس بشكل عام يحفل بمعظم النشاط العلمي، وقد اشار الى ذلك المقري ((... ومع هذا فليس لأهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل كانوا يقرأون جميع العلوم في المساجد)) (3). ويرجع السبب الرئيسي في اتخاذ المسجد مركزاً ثقافياً علمياً الى الدراسات الاسلامية في الفترة الاولى والتي كانت دراسات دينية تتضمن تعليم الدين الجديد وتفسيره وشرحه وتوضيح اسسه واحكامه وتلك العلوم ترتبط بالمسجد اوثق ارتباط ومن هنا كان من السهل على المسلم التوجه الى المسجد للتفقه في الدين واداء الفروض الدينية(4).

---

(1) ابو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت 265 هـ / 878 م) صحيح البخاري، تحقيق: محمد علي صبيح (القاهرة، 1893 م) ج1، ص 26.

(2) حوالة، الحياة العلمية في افريقية، ج1، ص 201.

(3) نفح الطيب، ج1، ص 220.، خفاجي، محمد عبد المنعم، الادب الاندلسي التطور والتجديد (بيروت، 1992 م) ط1، ص 205.

(4) عيسى، محمد عبد الحميد، تاريخ التعليم في الاندلس (دار الفكر العربي، د.م، 1982 م) ط1، ص 226.

وكان تلقي العلوم في المساجد يعتمد على نباهة الطالب وحسن استجابته ولو كان صغير السن فعن محمد بن الربيع قال: [عقلت من النبي صلى الله عليه واله وسلم مجة مجها في وجهي وانا ابن خمس سنين من دلو] (1). والراجح ان السن المثالية لدخول طالب العلم الى حلقات المسجد كانت بين سن الحادية عشر والثالثة عشر من العمر، وذلك لان هذا الطالب كان يقضي في المكتب خمس او ست سنوات، اما مايخص الحضور في حلقات المسجد فهي عملية تبدو سهلة إذ ان الامر لايتطلب منهم، غير ذهابهم الى المسجد وجلوسهم في حلقة الاستاذ الذي يرغبون بالدراسة عليه، كما ان الطلبة في المرحلة المذكورة كانوا احراراً في اختيار العلوم التي يرغبون دراستها، والتنقل بين حلقات من احبوا من العلماء دون قيد او شرط (2).

اما اوقات الدراسة في المسجد فلم يكن لها برنامج زمني محدد يتقيد به الطالب والاستاذ كا هو الحال الان في المؤسسات العلمية والتعليمية، بل كانت تتحكم في ذلك عوامل عدة منها: ظروف الاستاذ واوقات فراغه لان من الاساتذة من كان يمارس اعمالاً حرة يكسب من خلالها قوته، اذ ان اغلبهم كان يبذل العلم لوجه الله تعالى(3).

لذلك فان الاستاذ او المعلم كان هو الذي يحدد اوقات محاضراته حسب رغبته وظروفه ومن الامور الاخرى التي تتحكم في الاوقات المذكورة مواقيت الصلاة ورغبة الطلبة وظروفهم المعاشية واوقات تجمعهم ولم تكن الساعات التي تستغرقها كل محاضرة محددة وانما يتوقف ذلك على امر الاستاذ ومقتضى الحال(4).

---

(1) القاضي عياض، ابو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت 544 هـ/ 1149 م) الالماع الى معرفة احوال الرواية وتقييد السماع، تحقيق: السيد احمد الصقر (مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1970 م) ص 62.

(2) الجبوري، عبد العباس ابراهيم حمادي، الحركة الفكرية في مدينة فاس في عهد الدولة الموحدية، رسالة دكتوراه، كلية الاداب، جامعة بغداد، 1986 م، ص 195.

(3) الجبوري، الحركة الفكرية في مدينة فاس، ص 197.

(4) غنيمة، محمد عبد الرحيم، تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى (مطبعة كريماديس، تطوان، 1953 م) ص 274.

وقد ينتقل الطالب من مسجد مدينته بعد قضاء خمس سنوات فيه الى حاضرة الاندلس قرطبة او اية مدينة اخرى، او يقوم برحلة الى اي من مدن العالم الاسلامي لتلقي علومه في مساجدها على ايدي العلماء وان الحد الفاصل بين مرحلة طلب العلم في المسجد والمرحلة التالية هو ان يتتصب للتدريس فعندئذ يصبح شيخاً، اما سن الطالب وقتئذ فهو غير محدد فمدى استعداده لطلب العلم وتهيؤ الفرص ونوع العلم الذي عني به والشيوخ الذين تلقى عنهم وما كان له من نشاطات في طلب العلم وثقته في نفوس ابناء مجتمعه يحددها علمه وسلوكه(1).

والتدريس في المساجد يقوم به مجموعة من العلماء بعد ان تكتمل المرحلة الاولى عند التلاميذ تلك المتمثلة في القراءة والكتابة وحفظ القران فقد اشارت المصادر وكتب التراجم وكتب الطبقات الى ان هناك علماء متبحرين في العلوم الشرعية واللغوية والقراءات والتفسير والحديث والادب والعروض وغيرها من العلوم في مختلف المعارف ويقومون بالتدريس في الجوامع لطلاب العلم.

وكان الثغر الاندلسي الاعلى اغلب النشاط العلمي فيه وخاصة مدينة وشقة يقام في المساجد وهذا ما اشار اليه الحميري: [...، وبها ازيد من ستين مسجداً] (2).

وقد تصدر للتدريس في المساجد بعض علماء الثغور الاندلسية نخص منهم بالذكر، الفقيه ابراهيم بن دخنيل الوشقي ت 470 هـ / 1077 م من علماء الثغر الاعلى الاندلسي [...، اقرأ القرآن بجامع سرقسطة، وعلم العربية وكان رجلاً فاضلاً جيد التعليم حسن الفهم] (3).

---

(1) حسين، الحياة العلمية في بلنسية، ص 212.

(2) الروض المعطار، ص 612.

(3) ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص 96.

و الحسين بن محمد بن مبشر الانصاري ت 480 هـ / 1087 م فقد كان اماماً حاذق مجود، [...، تصدر للأقراء بجامع سرقسطة نحواً من اربعين سنة] [1].

والفقيه عبد الله بن ادريس السرقسطي ت 515 هـ / 1121 م [كان من اهل الاداء والضبط اخذ ببلده عن عبد الوهاب بن حكم وسمع ابا علي بن سكرة وسكن سبتة وتصدر في جامعها للأقراء] [2].

وكان خلف بن بقي التجيبي الطليطلي من علماء الثغر الاوسط الاندلسي، [تولى احكام السوق ببلده وكان يجلس لها بالجامع...] [3].

وكان العلماء يعقدون الوثائق في المسجد الجامع دون اجرة ومثال على ذلك عبد الله بن احمد يعرف بأبن القشاوي ت 417 هـ/ 1026 م [كان يبدأ في المناظرة بذكر الله عز وجل والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه واله وسلم ثم يورد الحديث والحديثين والموعظة ثم يبدأ بطرح المسائل] [4]. كما كان القاضي سليمان بن عمربن محمد الاموي ت 440 هـ/ 1048 م [مقرئاً للقرآن في المسجد الجامع...] [5]. وكان الفقيه والمحدث احمد بن قاسم بن محمد التجيبي 443 هـ / 1051 م [كانت له حلقة في المسجد الجامع] [6]. وكان ابراهيم بن لب بن ادريس التجيبي ت 450 هـ / 1058 م [جلس لأقراء الادب والنحو

(1) الجزري، شمس الدين ابو الخير محمد بن محمد (ت 832 هـ / 1428 م) غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق: ج1، ص 252.

(2) ابن بشكوال، الصلة، ج5، ص 292.

(3) الصدر نفسه، ج3، ص 166.

(4) الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت 748 هـ / 1324 م) تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق: عبد السلام تدمري (دار الكتاب العربي، بيروت، 1993 م) ط1، ج 28، ص 424.، ابن بشكوال، الصلة، ج5، ص 262.

(5) ابن بشكوال، الصلة، ص 199.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص 53.

في سقيفة الجامع بطليطلة][1]. كما كان الفقيه خلف بن بقي التجيبي الطليطلي [تولى احكام السوق ببلده وكان يجلس لها بالجامع] [2].

وكان علي بن عبد الله بن فرج المغامي ت 483 هـ / 1090 م قد تولى تدريس علوم القرآن في جامع قرطبة الاعظم مدة شهرين كما عمل في التدريس بجامع طليطلة وكان صاحب الخطبة والصلاة فيه [3].

وكان الفقيه سعيد بن كرسلين البطليوسي من محدثي الثغر الاندلسي الادنى يتحلق في المسجد الجامع ويقرأ عليه [4]. وقد بذل امراء الدولة الاموية في الاندلس من عناية غير اعتيادية لبناء المساجد وترميمها وتوسيعها فجاء في حوادث سنة 257 هـ/ 870 م ان الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط قام بتوسيع المسجد الجامع في عاصمة الثغر الاوسط بطليطلة بعد ان ضم الكنيسة الملاصقة له واعادة ترميم المنارة التي تهدمت بفعل عوامل الزمن[5].

ولم يكن انشاء المساجد وترميمها قاصراً على الدولة بل ان كثيراً من المساجد في الاندلس انشأها افراد المجتمع واوقفوا عليها الاوقاف والتي كانت مواردها تستخدم لمنفعة الحركة العلمية، فضلاً عن تهيئة المكان الملائم لها كتخصيص المنح للعلماء واعانة طلاب العلم وخاصة الوافدين[6]. ومنها مسجد باب مردوم[1]. الذي قام ببنائه موسى بن علي

---

(1) ابن الابار، محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضائي البلنسي (ت 658 هـ / 1259 م) التكملة الكتاب الصلة (المطبعة الشرقية، الجزائر، 1919 م) ص، 166، ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس، ج1، ص 26.

(2) ابن بشكوال، الصلة، ج3، ص 166.

(3) الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار، تحقيق: محمد سيد جاد الحق (مطبعة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة، 1967 م) ط1، ج1، ص 354.

(4) ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس، 142.

(5) الشباني، الحياة العلمية في طليطلة الاسلامية، ص 51.

(6) حسين، الحياة العلمية في بلنسية، ص 209.

الطليطلي سنة 390 هـ/ 999 م بعد ان تبرع ببنائه احد اعيان طليطلة وهو الفقيه احمد بن يحيى بن سعيد التجيبي ويعرف بأبن الحديدي [2].

وهناك مسجداً شيده علي بن حسن من اهل بطليوس [...، ابتنى مسجداً ببطليوس وهو منسوب الى اليوم] [3].

وكان ابو النصر فتح بن ابراهيم الاموي ت 403 هـ/ 1013 م والذي يعرف بأبن القشاري بنى بطليطلة مسجدين احدهما بالجبل البارد والاخر بالدباغين [4] [كان رجلاً صالحاً عابداً قانتاً مجتهداً في طلب العلم] [5].

ومما زاد دور المسجد وديمومة رفده للحياة العلمية هو مشاركة الجميع في توفير الاموال اللازمة لأزدهار الحياة العلمية في المساجد [6].

---

(1) من اهم الاثار الاسلامية في مدينة طليطلة اذ انه يحتفظ ببعض المميزات المعمارية الاندلسية التي كانت دائماً مصدر ايحاء للعاملين في مجال الفنون المعمارية وقد حول الى كنيسة تسمى كريستو دي لالوث ويوجد في نقش واجهته عبارة ((بسم الله الرحمن الرحيم اقام هذا احمد بن حديدي من ماله ابتغاء ثواب الله فتم بعون الله على يدي موسى بن علي البناء)). ينظر: عنان، الاثار الاندلسية، ص 89.

(2) ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، ص22.، ابن بسام الشنتريني، ابي الحسن علي بن بسام (ت 540 هـ/ 1145 م) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، تحقيق: احسان عباس (دار الثقافة، بيروت، د.ت) ق4 م1، ص 152.

(3) ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس، ص 250.

(4) ارسلان، شكيب، الحلل السندسية في الاخبار والاثار الاندلسية (دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت) ج2، ص 21.

(5) الذهبي، تاريخ الاسلام، ج 28، ص 87.

(6) حسين، حازم غانم، الحياة العلمية والثقافية في الاندلس في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي (رسالة ماجستير، جامعة الموصل، 1983 م) ص 115.

2) الكتاتيب

تعد الكتاتيب من اقدم واهم المراكز الثقافية بعد المساجد والجوامع والتي اسهمت في نشر العلوم والمعارف الاسلامية على وجه الخصوص[1]. وقد ورد اصطلاح الكتاتيب في معاجم اللغة العربية منها، [المكتب: موضع الكتاب، والمكتب والكتاب موضع تعليم الكتاب، والجمع الكتاتيب، المكتب موضع التعليم والمكتب المعلم والكتاب الصبيان] [2].

ويهدف الى تعليم الصبيان القراءة والكتابة، ثم تعدى ذلك الى تعليم مبادىء الدين والصلاة وقراءة القران والحساب [3]. وكان الذين يتولون التعليم في المكاتب يطلق عليهم اسم المعلمين او المكتبين [4]. ويدير المكتب معلم قارىء حافظ مثقف يتخذ التعليم حرفة، واذا كان عدد الاطفال كثيراً قد يشترك اكثر من معلم واحد في المكتب[5]. وكان المعلم يقوم بتقسيم اوقات الدراسة في مكتبه ويوزع مفردات المنهج على ايام الاسبوع كأن يجعل لكل مادة يوماً معيناً او ساعة محددة وفي الاغلب الاعم كانت الدراسة تبدأ من بعد صلاة الصبح الى الضحى الاعلى، ثم من الظهر الى صلاة العصر وبعد ذلك يسرح الطلبة الى ذويهم، اما ايام الدراسة في المكتب خلال الاسبوع فهي السبت والاحد

(1) حوالة، الحياة العلمية في افريقية، ج1، ص 226.

(2) ابن منظور، لسان العرب، ج 42، ص 3817.

(3) الغزالي، احياء علو الدين، ج1، ص 48.

(4) الشيرزي، عبد الرحمن بن نصر (ت 589 هـ / 1193 م) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: السيد الباز العريني (دار الثقافة، بيروت، د.ت) ص 103. الونشريسي، ابي العباس احمد بن يحيى (914 هـ / 1508 م) المعيار المعرب والجامع المغرب (وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط، 1981 م) ج7، ص 111.

(5) سحنون، محمد (ت 256 هـ / 869 م) آداب المعلمين، تحقيق: محمد العمروسي (دار الكتب الشرقية، المغرب، 1972 م) ص 74.

والاثنين والثلاثاء والاربعاء وصبيحة يوم الخميس، وكانت الدراسة تعطل في ايام الجمع والاعياد لاسيما عيدي الفطر والاضحى [1].

ومن طرق التعليم في الكتاتيب واساليبه العلمية،ان يقوم المعلم بقراءة آية من آيات القران الكريم ثم يقوم بعض المعلمين بتعليم الاطفال السور القرانية القصيرة اولاً وعندما ينتقل الطفل من جزء الى جزء كان عليه ان يقرأ على معلمه ماقد سبق وتعلمه وهكذا يمضي الصبي من جزء الى جزء [2]

وقد بين ابن الازرق ما اتبعه اهل الاندلس عموماً وفي كافة مدنهم في تعليم اولادهم فقال: [وهي تعليمهم للقراءة والكتابة من حيث هو لكنه لما كان القرأن اصل ذلك ومنبع الدين والعلوم جعلوه اصلاً في التعليم، وخلطوا به رواية الشعر والترسل وحفظ قوانين العربية وتجويد الخط والكتابة وعنايتهم به اكثر من الجميع الى ان يخرج من حد البلوغ الى حد الشبية، وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر وبرز في الخط والكتابة وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم ولكنهم ينقطعون عند ذلك لأنقطاع سند التعليم في افقهم ولايحصل لهم الا ذلك التعليم الاول وفيه كفاية واستعداد اذا وجد المعلم] [3].

والكتاتيب كانت تنصب إما في المساجد وإما في اماكن خاصة[4]. اما ابرز توجيهات ابن سحنون لمعلمي الكتاب: [ان يعلمهم اعراب القران والشكل والهجاء، والخط الحسن والقراءة الحسنة والتوقيف والترتيل ولابأس ان يعلمهم الشعر] [5]. ومنها

---

(1) الجبوري، الحركة الفكرية في فاس، ص 212.

(2) عيسى، محمد عبد الحميد، تاريخ التعليم في الاندلس (دار الفكر العربي، 1982م) ط1، ص 243.

(3) ابي عبد الله (ت 896 هـ / 1490 م) بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: علي سامي النشار (دار الحرية للطباعة، بغداد، 1978 م) ج2، ص 365.

(4) حوالة، الحياة العلمية في افريقية، ج1، ص 228.

(5) آداب المعلمين، ص 106.

ايضاً: [ان لاينقلهم من سورة الى سورة حتى يحفظوها] [1]. وقوله ايضاً [ينبغي للمعلم ان يأمره بالصلاة اذا كانوا بني سبع سنين ويضربهم عليها اذا كانوا بني عشر] [2].

وقد اتخذ بعض هؤلاء المعلمين او المؤدبين من التعليم حرفة يتكسبون بها وكان الواحد منهم يتقاضى جعلاً او مكافأة كلما بلغ احد تلاميذه مرحلة الاتقان والحذق ولذلك عرفت هذه المكافأة بأسم (الحذقة) [3]. كما كان محمد بن عثمان السرقسطي [خرج الى المشرق من سرقسطة حدثاً فأقام هناك وأدب بمصر وسمع سماعاً كثيراً...] [4]. وكان جودي بن عثمان الطليطلي ت 198 هـ / 813 م أول مؤدب ادب اولاد الامير بالاندلس[5]. ومن بين الشخصيات العلمية التي كانت تقوم بمهمة تعليم الصبيان في الثغور الاندلسية نذكر منهم: احمد بن كوثر النحوي [الذي كان وقفاً على سرقسطة ومدائن ثغرها يتجول فيها ويعلم بها وعنده تعلم الرؤساء بنو هود وكثير من اهل الثغر، توفي بعد الاربعين والاربعمائة] [6].

كما كان المقرء ابراهيم بن دخنيل الوشقي ت 470 هـ / 1077 م [...، علم العربية وكان رجلاً فاضلاً جيد التعليم حسن الفهم] [7]. والفقيه بشر بن سعيد العبدري من بعض الثغور الشرقية

---

(1) المصدر نفسه، ص 110.

(2) المصدر نفسه، ص 109.

(3) الدويدار، المجتمع الاندلسي في العصر الاموي، ص 400.

(4) ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس، ص 345.

(5) اليماني، عبد الباقي عبد المجيد (ت 743 هـ / 1342 م) اشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق: عبد المجيد دياب (القاهرة، 1985 م) ط1، ص 77.

(6) ابن الابار، التكملة لكتاب الصلة، ص 53.

(7) ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص 96.

معلماً فقيهاً لم تـؤرخ سـنة وفاتـه[1]. وكـان عبـد الله بـن احمـد ت 448 هـ/ 1056 م [نافـذاً في علـم العدد والهندسة والنجوم وقعد لتعليم ذلك في بلده...] [2].

وكان النحوي احمد بن سعيد بن عبـد الله ت 520 هـ/ 1126 م قـد تـصدر لتعلـيم العربية بسرقسطة[3].

وبرز من علماء الثغرالاندلـسي الاوسـط تمـام بـن عبـد الله بـن تمـام ت 377 هـ / 987 م الـذي اشـتهر عنـد تعليمـه القـرآن للـصبيان في طليطلـة[4]. والفقيـه سـرواس بـن حمـود الصنهاجي ت 391 هـ/ 1000 م الذي كان معلماً للقرآن. والفقيه احمد بـن عبـد الله بـن شاكر الاموي ت 424 هـ/ 1023 م [...، كان معلماً بالقرآن] [5].وكان احمد بن يوسـف بن حماد الصدفي ت 449 هـ/ 1057 م الذي [كان معلماً للقران مـن اهـل الخـير والـورع والثقة] [6].

وممن استوطن الثغر الاندلسي الاوسط ابرهيم بن لب بن ادريس التجـيبي ت 450 هـ/ 1058 م [كان متقدماً في علم العدد والفرائض والهندسة وقعـد للتعلـيم بـذلك زمنـاً طـويلاً، وقـد أدب بها بطليطلة] [7].

وكان الواعظ تمام بـن عفيـف بـن تمـام الـصدفي ت 451 هـ/ 1059 م [...، يعلـم الناس امر دينهم وما يلزمهم ويخوفهم ويجتهـد في نـصحهم] [8]. وكـان الفقيـه محمـد بـن

---

(1) ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس، ص 86.

(2) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص 72.

(3) ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس، ج4، ص 98.

(4) ابن بشكوال، الصلة، ج4، ص 232

(5) ابن بشكوال، الصلة، ج1، ص 41.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص 56.

(7) ابن الابار، التكملة، ص 166.، لبن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس، ج1، ص 29.

(8) ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص 121.

خيرة الطليطلي كان حياً سنة 460 هـ / 1059 م [احد المبرزين في علمي العدد والهندسة وعلم ذلك في قرطبة] [1].

سعيد بن عيسى بن احمد الرعيني ت 460 هـ / 1061 م [...، كان عارفاً بعلوم اللسان نحواً ولغة وأدباً تصدى لتدريس ذلك كله ببلده...] [2].

وكان احمد بن نعيم مؤدباً في جيان وطليطلة [3].

وكان محمد بن بهلول البطليوسي من علماء الثغر الاندلسي الادنى [كان متقدماً في الاداب حسن القيام بها مشاركاً في النحو آدب ذلك كله في يناشتة للعامة وبأقليش لبعض ولد خدمة السلطان] [4].

ومحمد بن حسين بن عبادة البطليوسي ت 560 هـ / 1164 م [متقدماً في النحو والادب درس ذلك زماناً] [5].ويمكن القول ان الهدف الاسمى من ايجاد تلك الكتاتيب هي تنشئة اولئك الصبيان تنشئة دينية قويمة عن طريق البرنامج الدراسي الذي يقدم فيها، وغني عن القول انه ليس هناك ثمة ازدواجية في هذا بين دور المساجد والجوامع وبين دور الكتاتيب، فالمساجد والجوامع كيانها العلمي يعتمد على الحلقة والشيخ والمريدين، بينما الكتاب كان مقتصراً على الصبيان عن طريق تقديم محصلة علمية متواضعة في حجمها توطئة للإلتحاق بالحلقة في الجامع. فالكتاب يهد الطريق للصبي بعد بلوغه السن والتحصيل الملائمين الى الانتظام في حلقات الشيوخ في الجوامع والمساجد التي تعد مرحلة علمية متقدمة[6].

---

(1) المراكشي، الذيل والتكملة، المراكشي، ج6، ص 197.، صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص 72.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص 39.، الذهبي، تاريخ الاسلام، ج31، ص 65.

(3) دويدار، المجتمع الاندلسي في العصر الاموي، ص 400.

(4) المراكشي، الذيل والتكملة، ج6، ص 145.

(5) المصدر نفسه، ج6، ص 173.

(6) حوالة، الحياة العلمية في افريقية، ج1، ص 227

3) الأربطـة

ورد اصطلاح الرباط في المعاجم اللغوية ومنها ما يقصد بـه [مـاربط بـه جمـع ربـط والفـؤاد والمواضبة على الامر وملازمة ثغر العدو] [1].

واطلقت كلمة رباط في القران الكريم على رباط الخيل كمـا جـاء في الايـة الكـريمـة (واعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)[2].

ثم تطورت الكلمة الى ان اصبحت تعني المقام او المكان الذي يتجمع فيـه المتطوعـة لمدافعة العدو وللتعبد، ثم اصبحت عبارة عن منشأة علمية ذات صـبغة دينيـة وحربيـة بـل صبغة دفاعية للذوذ عن حوزة الاسـلام [3] وامـاكن لحيـاة الزهـد والتقـشف والتـصوف يرتادها الصوفية للعبادة والانقطاع الى الله والتوبة ومجاهـدة الـنفس والحـد مـن شـهواتها، كما اصبحت تؤدي خدمات اجتماعية ودينية اضافة الى دورها الثقافي في الـوعظ والاقـراء والتحديث والسماع والافتاء ومنح الاجازات العلمية ونصنيف الكتب وساعد على ذلـك ان الواقفين لهذه الرباطات قـد انـشأوا فيهـا الخـزائن ووقفـوا فيهـا الكتـب فكـان الزهـاد والمتصوفة يترددون على مكتباتها وكذلك يفعل الطلاب الـذين يرحلـون في طلـب العلـم وكـان العلمـاء يتخـذون مـن الـربط امـاكن للقـراءة والمطالعـة والاستنـساخ والتـأليف ويساعدهم على ذلك مكتبات الاربطة العامرة وامكانيـة مكـوثهم فيهـا وقتـاً طـويلاً ومـا يتهيأ لهم من معونة بشرية تتمثل في الطـلاب والمتـصوفة الـذين كـانوا علـى اسـتعداد تـام للتعاون طلباً للثواب [4].

---

(1) الفيروز ابادي، القاموس المحيط، ج2، ص 274.

(2) سورة الانفال، اية 5.

(3) حوالة، الحياة العلمية في افريقية، ج1، ص 236.

(4) عسيري، مريزن سعيد، الحياة العلمية في العراق في العـصر الـسلجوقي (مكتبـة الطالـب الجـامعي، مكة المكرمة، 1987 م) ط1، ص 239.

فكانت حياة المرابطين تقوم على الحراسة والزهد والتعبد وذكر الله بصوت مرتفع وكان اهل العلم يستحبون التكبير في العساكر والرباطات والثغور دبر صلاة العشاء وصلاة الصبح تكبيراً عالياً ثلاث تكبيرات[1]. ومن ابرز علماء الثغور الاندلسية الذين كانوا يرابطون في الرباطات نذكر منهم: نعم الخلف بن ابي الخصيب التطيلي ت 289 هـ/ 901 م [محدثاً شاعراً من اهل الغزو والرباط] [2]. كما كان المحدث ابو محمد حماد بن شقران ت 354 هـ/ 965 م [...، كان كثير الرباط في الثغور متكرراً عليها توفي بضيعته بإستجة من اقليم طليطلة] [3]. وكان الحسين بن ابي العافية الجنجيالي ت 383 هـ/ 993 م [قدم طليطلة مرابطاً كان شيخاً صالحاً حدث عنه الصاحبان ...][4]. والفقيه الحسن بن محمد بن عبد الله من اهل جيان ت 390 هـ/ 999 م حدث عنه الصاحبان وقالا: [قدم علينا طليطلة مرابطاً وكان رجلاً صالحاً...] [5]. والمحدث عبد الله بن سعيد بن ابي عوف الرباحي ت 432 هـ/ 1040 م الذي قدم طليطلة واستوطنها [كان يرابط في رمضان بحصن ولمش] [6]. سليمان بن ابراهيم بن هلال الطليطلي [كان رجلاً صالحاً زاهداً عالماً بأمور دينه تالياً للقرآن مشاركاً في التفسير والحديث ورعاً فرق جميع ماله وانقطع الى الله عز وجل ولزم الثغور، توفي بحصن غرماج وذكر ان النصارى يقصدونه ويتبركون بقبره] [7]. ومن علماء الثغر الاوسط الاندلسي عبد الله بن محمد بن

---

(1) العبادي، صور من حياة الحرب والجهاد، ص 30.

(2) الحميدي، جذوة القتبس، ج1، ص 358. الضبي، بغية الملتس، ج2، ص 640.

(3) ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس، ص 109.

(4) ابن بشكوال، الصلة، ج3، ص 140.

(5) ابن بشكوال، الصلة، ج3، ص 135.

(6) الذهبي، تاريخ الاسلام، ج 29، ص 367.، ابن بشكوال، الصلة، ج5، ص 268.

(7) ابن بشكوال، الصلة، ج4، ص 199.

عيسى الذي قدم طليطلة مجاهداً [كان من اهل العلم بالعربية واللغة متحققاً بهما بارعاً فيهما] [1].

4) **دور الكتب أو المكتبات**

من خلال ما ذكرته المصادر عن النتاج العلمي لعلماء الثغور الاندلسية نجد انهم قاموا بتأليف عدد كبير من المؤلفات وفي مختلف المجالات وكان هذا سبباً رئيسياً في انشاء المكتبات. فجمع الكتب وانشاء المكتبات من اهم روافد الحياة العلمية فقد حرص الكثير من الامراء والخلفاء والكبراء في الاندلس على جلب الكتب وتأسيس المكتبات، ومن اشهرهم في ذلك الخليفة الحكم المستنصر ت 366 هـ / 976 م الذي اسس مكتبة عظيمة حوت نحو 400 الف مجلد في علوم شتى واخذ الكثيرون في اقتناء الكتب وانشاء المكتبات في شتى انحاء الاندلس للعلم او للتباهي بها [2].

وتقسم المكتبات الى:-

أ – المكتبات العامة:

تعد مكتبات المساجد من اهم المكتبات العامة التي كانت ملازمة لأغلب مساجد المسلمين ذلك بعد انتشار الاسلام[3]. فلايوجد مسجد خالي من مصاحف القرآن الكريم وكتب الحديث وغيرها من الكتب الدينية [4].

---

(1) السيوطي، بغية الوعاة، ج2، ص 59. الذهبي، تاريخ الاسلام، ج 28، ص 114.، ابن بشكوال، الصلة، ج5، ص 260.

(2) المقري، نفح الطيب، ج1، ص 462.

(3) ارنولد، سير توماس، تراث الاسلام، عربه وترجم حواشيه: جرجيس فتح الله (دار الطليعة، بيروت، 1972 م) ص 482.

(4) ارنولد، تراث الاسلام، ص 344.

فقد كان الفقيه عبد الرحمن بن محمد بن عباس صاحب الصلاة والخطبة في جامع طليطلة كما قام بتدريس الفقه والحديث في جامع طليطلة [1]. فكان ابراهيم بن لب بن ادريس التجيبي ت 450 هـ / 1058 م [جلس لأقراء الادب والنحو في سقيفة الجامع بطليطلة...] [2].

فقد كان لمكتبة الخليفة الحكم المستنصر بالله في قرطبة دوراً كبيراً في اغناء المكتبات العامة وتزويدها بالكتب، وبعد قيام الفتنة البربرية انتقلت المكتبة الكبيرة من قرطبة الى عاصمة الثغر الاندلسي الاوسط طليطلة اذ بيعت الكتب العلمية فيها بأوكس ثمن[3].

ب – المكتبات الخاصة:

وتشمل مكتبات امراء الدولة ورجالها والعلماء وطلبة العلم اذ انه كان لأغلب العلماء في شرق الوطن العربي او مغربه مكتبات خاصة [4].

فقد كان اسحاق بن ابراهيم بن مسرة التجيبي ت 354 هـ / 965 م من العلماء الذين كانوا يبحثون عن الكتب القديمة العلمية لشرائها [5].

ومن العلماء من تجاوزت شهرة مكتبته الخاصة خارج نطاق مدينته حتى ذاع صيتها في البلاد لكثرة كتبها وندرتها الفقيه سعيد بن احمد بن محمد الحديدي الذي [جمع كتباً لاتحصى وكانت معظمة عند العامة والخاصة] [6].

---

(1) ابن الابار المراكشي، التكملة، ص 166.، ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس، ج1، ص 29.

(2) الذهبي، تاريخ الاسلام، ج 29، ص 462.

(3) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص 67.، مطلق، البير حبيب، الحركة اللغوية في الاندلس منذ الفتح حتى نهاية سقوط عصر ملوك الطوائف (المكتبة العصرية، بيروت، 1967 م) ص 264

(4) السباعي، مصطفى، من روائع حضارتنا (دار الارشاد، بيروت، 1968 م) ط2، ص 146

(5) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج4، ص 224.

(6) الذهبي، تاريخ الاسلام، ج29، ص 236. القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3، ص 224.

وكان للفقيه احمد بن محمد الاموي الطليطلي المعروف بـأبن ميمـون ت 400 هـ/ 1009 م مكتبة عامرة مليئة بالكتب والوان التصانيف وقد وقع حريق في اسـواق طليطلـة وامتـدت النيران الى دار ابن ميمون فالتهمتـه الا الزاويـة الـتي بهـا الكتـب وكـان في ذلـك الوقـت مشغولاً بالجهاد فتعجب الناس من ذلك ونظراً لما تمتع بـه مـن اجـادة للنسـخ فقـد كانـت اكثر كتبه بخط يده[1].

عبد الرحمن بن عثمان الصدفي ت 403 هـ/ 1012 م [...، كان قد نسخ اكثـر كتبـه بخطه] [2].

وكان ابو عثمان سعيد بن محمد بن البغويش ت 444 هـ/ 1052 م [ذا كتب جليلـة في انواع الفلسفة وضروب الحكمة] [3].

وكان الفقيه احمد بن عمر الصدفي ت 450 هـ/ 1058 م [من اهل العلـم والعمـل، حسن الضبط لكتبه متحرياً لم يبح لأحد ان يسمع منه ولا روى لأحد شيئاً من كتبه] [4].

وعبد الله بن سليمان المعافري ويعرف بأبن المؤذن ت 460 هـ/ 1068 م [من اهـل العلم والفضل، الاغلب عليه الحديث والاثار كان كثير الكتب جلها بخطه] [5].

وكان عبد الله بن حيان الارنيشي ت 487 هـ/ 1094 م [كانـت لـه همـة عاليـة في اقتناء الكتب] [6].

---

(1) ابن بشكوال، الصلة، ج1، ص 22.

(2) ابن بشكوال، الصلة، ج5، ص 313. الذهبي، تاريخ الاسلام، ج28، ص 84.

(3) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص 83.

(4) ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص 59.

(5) المصدر نفسه، ج5، ص 279.

(6) الضبي، بغية الملتمس، ج2، ص 445. الذهبي، تاريخ الاسلام، ج 33، ص 207.

2 – **الفلـك والنجـوم:**

يعد علم الفلك من جملة العلوم الـتي تـستهوي الـنفس البـشرية وتـثير فيهـا غريـزة حب الاستطلاع للغموض الذي يتغلغله ومايرتبط بذلك من محاولات اسـتكناه غـوامض الكون والطبيعة وقد كان الخلفاء وسلاطين الاسلام في العصور الوسطى لايتقدمون علـى خوض غمار الحروب او حتى الشروع في تأسـيس مدينـة دون الرجـوع الى اراء المـنجمين لتعين الاوقات السعيدة الـتي تتحقـق فيهـا الانتـصارات او البنيـان طبقـاً لحـسابات علـم التنجيم، كما كان علماء الدين يولون دراسة الفلك عناية خاصة لاسيما علم الميقـات منـه لتعيين مواقيت الصلاة والصيام والحج [1].

وقد قدر للفلك في الاندلس ان يخضع لما كان جاريـاً مـن اسـاليب المنـع والتحـريم التي كانت تصل في بعض الاحيان الى الاضطهاد البالغ القسوة، وجاءت فـترات لايـسمح للناس من خلالها ان يعرفوا إلا الضروري منـه لتحديـد اتجـاه القبلـة في المـساجد وتعـيين مواقيت الليل والنهار على مدار السنة أي تعـرف اوقـات الـصلاة والوثـوق مـن مواعيـد الأهلة [2].

ومن علماء الثغر الاندلسي الاعلى، عبـد الله بـن احمـد السرقـسطي ت 448 هـ / 1056 م كان نافذاً في علم النجوم، ألـف العديـد مـن المؤلفـات منهـا « اصـلاح حركـات الكواكب » وكتاب « التنبيه على خطأ المنجمين » [3].

---

(1) حسين، حمدي عبد المنعم محمد، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والاندلس في عصر المرابطين (دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1997م) ص 409.

(2) هونكة، سينجرد، شمس الله على الغرب، ترجمة: فؤاد حسين علي (دار النهـضة العربيـة، القـاهرة، 1964 م) ص 91.

(3) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص 72.

وبرع ابو الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي في علم النجوم واتقن علم المنطق وتمرن بطرق البحث والنظر كان حياً سنة 458 هـ / 1066 م[1].

وكان المقتدر بالله بن هود امير سرقسطة ت 473 هـ/ 1081 م قد تعاطى علم الفلك [2]، وقد وصفه ابن حزم القرطبي بقوله: ((...، وهل لكم في علم النجوم ملك كالمقتدرفأنه كان في ذلك آية)) [3]. وكذلك الامير المؤتمن بن المقتدر بن هود ت 478 هـ/ 1085 م الذي ألف كتاب « الاستكمال في الفلك » وقد درسه موسى بن ميمون ووضع له شرحاً، وقال: انه جدير بأن يدرس بنفس العناية التي تدرس بها كتابات اقليدس وكتاب المجسطي لبطليموس [4].

ومن علماء الفلك الاخرين ابو بكر محمد بن باجة التجيبي السرقسطي ت 533 هـ/ 1138 م الذي فكر في اجرام الافلاك وحدود الاقاليم[5]، وكانت له ملاحظات على نظام بطليموس في الفلك واشار الى نقاط الضعف فيه[6].

وكان عبد الله بن الشمر بن النمير الوشقي، منجماً ونديماً لسلطان الاندلس عبد الرحمن بن الحكم لم تذكر المصادر تاريخ وفاته [7]. كما كان ابن الشماط السرقسطي من اجل من ظهر في الثغر الاندلسي الاعلى من الرياضيين والفلكيين[8].

---

(1) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص 499.

(2) بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسي، ص 454.

(3) فضائل الاندلس واهلها، ص 34.

(4) بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسي، ص 455.

(5) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج4، ص 429.، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج4، ص 103.، بارالت، لوثي لوبيث، اثرالاسلام في الادب الاسباني، ترجمة: علي عبد الرؤف (مركز الحضارة العربية، د. م، 2000م) ط1، ص 47.

(6) الخياط، جعفر، العقلية العلمية المبدعة عند العرب، بحث منشور، مجلة الاقلام، ج1، بغداد، 1964 م، ص 100.

(7) ابن الكتاني، التشبيهات من اشعار اهل الاندلس، ص 323.

(8) فروخ، تاريخ الفكر العربي، ص 589.

ويعد ابو القاسم مسلمة بن احمد المجريطي ت 398 هـ / 1008 م من ابرز فلكي الثغر الاندلسي الاوسط، وقد اكد ذلك صاعد الاندلسي بقوله: ((إمام الرياضيين في الاندلس في وقته وإعلم ممن كان قبله بعلم الافلاك، حيث كانت له عناية بأرصاد الكواكب وشغف بتفهم كتاب بطليموس المعروف بالمجسطي وقد انجب تلاميذ جلة لم ينجب عالم بالاندلس مثلهم)) [1]. وكذلك اشتهر صاعد الطليطلي بعلومه الفلكية حيث كان بارعاً فيها،وقد ألف كتاب في « اصلاح حركات النجوم » نبه فيه على اخطاء الخوارزمي [2].

و ابراهيم بن لب بن ادريس التجيبي ت 454 هـ / 1062 م ((...، كان له بصر بعلم هيئة الافلاك وحركات النجوم)) [3]. كما كان لسعيد بن عيسى الاصغر ت 460 هـ / 1067 م مشاركة في علم المنطق [4].

وكان هشام بن احمد بن خالد الوقشي ت 489 هـ / 1095 م من المتوسعين لضروب المعارف والمتقبين في العلوم، من اهل العلم الصحيح والتحقق بصناعة المنطق [5].

وكان ابو اسحاق ابراهيم بن يحيى التجيبي النقاش ت 493 هـ / 1100 م المعروف بأبن الزرقالة،من البارعين في العلوم الفلكية لاسيما « رصد النجوم وعلل الازياج » [6]. وقد وصفه صاعد الاندلسي بقوله: ((أعلم اهل الاندلس بحركات النجوم وهيئة الافلاك

(1) بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسي، ص 458.

(2) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص 69.

(3) ابن الآبار البلنسي، التكملة، ص 166.، صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص74.

(4) ابن بشكوال، الصلة ج4، ص 223.

(5) الحموي، معجم الادباء، ج6، ص 2778.، الذهبي، تاريخ الاسلام، ج33، ص 327.

(6) ابن الآبار البلنسي، التكملة، ص 170.، الذهبي، تاريخ الاسلام، ج34، ص 144.، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص 107.

ويعد ابصر اهل زماننا بأرصد الكواكب وهيئة الافلاك وحساب حركاتها واعلمهم بعلم الازياج* واستنباط الالات النجومية)) [1] ، كما اشتهر الزرقالي بصنع الالات، وكتب عنها رسالة كانت اساساً لشرح وتعليقات مختلفة عليها[2].

ومن اهم اختراعات الزرقالي في الثغرالاندلسي الاوسط (بيلتا طليطلة) وذكر ذلك المقري بقوله: ((ومن غرائب الاندلس البيلتان اللتان بطليطلة صنعهما الزرقالي لما سمع بخبر الطلسم الذي بمدينة ارين من ارض الهند، وانه يدور بأصبعه من طلوع الفجر الى غروب الشمس فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطلة في بيت مجوف في جوف النهر الاعظم في الموضع المعروف بباب الدباغين ومن عجائبهما انهما تمتلئان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه)) [3]، ((وله صفيحة الزرقيال المشهورة التي جمعت من علم الحركات الفلكية كل بديع مع اختصارها ولما وردت على علماء هذا الشأن بأرض المشرق حاروا لها وعجزوا عن فهمها الإبعد التوفيق)) [4]، وبعد سقوط طليطلة انتقل الى قرطبة واستوطنها واستمر بأعماله الفلكية حتى وفاته[5].

رحلة عبر اسبانيا المسلمة، حقائق معلومات حضارية عن وزارة السياحة الاسبانية تمجد الحضارة الاندلسية خلال ثملني قرون من الحكم الاسلامي تحدث المستشرقون الاسبان عن مجد الحضارة الاندلسية واعجبوا بتراث الاسلام على ارض اسبانيا ووصفوا

* جمع زيج، وهي جداول فلكية خاصة بكل كوكب يعرف العلماء منها مواقع الكواكب في افلاكها وكذلك يمكن من هذه الجداول الفلكية معرفة الشهور والايام والتواريخ الماضية وبها اصول مقررة لمعرفة الاوج وهو ابعد نقطة في مدار الكوكب والحضيض وهواقرب نقطة من الارض. ينظر: الدفاع، علي عبد الله، اثر علماء العرب المسلمين في تطوير علم الفلك (مؤسسة الرسالة، 1985 م) ص 32.

(1) طبقات الامم، ص 75.

(2) ارنولد، تراث الاسلام، ج1، ص 215.

(3) نفح الطيب، ج1، ص 206.

(4) القفطي، اخبار العلماء، ص 42.

(5) ابن الآبار البلنسي، التكملة، ص 170.

مسيرة احداث التاريخ الاندلسي والتراث الذي خلدة الاسلام وانبهروا باثار اهل الاندلس والعادات والتقاليد الجتماعية والانجازات الاقتصادية والتنضيمات العسكرية واعجبوا بالفكر الاندلسي ووصفوا العلوم والاداب والفنون باجمل الصفات والالوان واكدوا ما تم تاليفة من لروائع المؤلفات في شتى العلوم والاداب لان اهل الاندلس كانوا لهم فضلا كبيرا في بناء اسبانيا الحد يثة اذ اصبحت اسبانيا اكبر بلد سياحي في العلم تدر الثروات من خلال مدخولات الساحة السنوية وتقدر الاحصائيات بان واردات اسبانيا السياحية تفوق واردات البترول في العالم العربي فضلا عن جمال الاثار وروعتها وابداع الذين شيدوها من كبار المعماريين الاندلسيين بالدقة والذوق والاناقة والصمود والشموخ وتهدد انواع الفن وهي شاهد عيان لكل سائح ياتي من بقاع العالم ليرى حقائق الذوق المعماري الاندلسي ويندهش ويتمعن ويصور ويرسم ويشتري التحف من اسواق غرناطة (سوق القيصرية بجاور قصر الحمراء) ويضم مئات المحلات التجارية التي تقتات برزقها على معالم مجسمة عن قصر الحمراء ولوحات المفاتيح وبدلات الرقص الفلامنكو الشعبي الذي يعود الى اصل الرقص شعب الاندلس انجزت وزارة الساحة الاسبانية دليل بالغات العالمية عن التراث الاندلسي للزوار السياح تتفاخر بة امام العالم بعظمة الحضارة الاندلسية بصراحة وعذوبة الوصف بدون تحيز او دس لان الحقائق يوكد على جمالية حضارة الاندلس ونتاجها الانساني، محاولة لعرض ماتم توينة نصا في الدليل السياحي الذي يحصل علية زوار وسياح اسبانيا من مختلف الجنسيات لمعرفة الاماكن السياحية التراثية الاندلسية عم صورة طبيعية للاثار الباقية عن تاريخ وحضارة الاندلس وما تم عرضة يعد مفخرة لكل عربي مسلم وعاشق للتراث الاندلسي عبر عصورة خلال اكثر من ثماني قرون من المجد الاسلامي (92-897هـ/ 711-1492م) ننقل النص الاسباني عن وزارة الساحة الاسبانية بدون تعليق كي يظهر للقلري مدى تباهي واعجاب وحب وتعلق الاسبان لمجد الحضارة الاندلسية.

رحلة عبر اسبانيا الاسلامية، اعترافات الاستشراق الاسباني في كتاب وزارة السياحة الاسبانية تاريخ اسبانيا المسلمة هو تاريخ افتتاح أراضي شبه الجزيرة بكاملها

تقريباً ثم تقلصه المتدرج حتى انحصاره في بعض المناطق الجنوبية. وهذا وستأخذ الحدود بالانحدار نحو الجنوب قرناً بعد قرن منذ السنوات الاولى من القرن الثامن وحتى القرن الخامس عشر عندما أقتصر الاسلام في أسبانيا على مملكة صغيرة تؤدي الجزية الى جيرانها المسيحيين.

وعلى مدار ثمانمائة عام،توصلت الاندلس إلى أن تكون أحدى مقاطعات الاسلام التي تتميز بشخصية فريدة تبرر ملامحها – التي تلاحظ من خلالها بطبيعة الحال التراث الشرقي وتراث شمالي أفريقية الذي أتى به المعمرون الاوائل – في العالم الاسلامي بشكل واضح تماماً. وقد تحولت الاندلس الى قوة ثقافية قادرة على أن تعرض ذوقها. بشكل طبيعي. في بلدان أسلامية اخرى وعلى أن تتمثل الغزاة الفاتحين لدرجة جعلتهم يضيعون هويتهم الاصلية. وأصبح كل ماهو أسباني – إسلامي في فترات مختلفة مرادفا للرقة والتهذيب كما تم في المدن الاندلسية تثقيف وتكوين بعض الشخصيات التي مازالت حتى الان تراثا لأفضل ما أنتجته الثقافة الاسلامية. لقد ظلت تلك الثقافة البراقة موجودة في اسبانيا، ولو لم يكن ذلك بصفة رسمية حتى بعد الفتوحات الفستالية والارغونية ولقد ضمن المدجنون – اي المسلمون الذين يسكنون الممالك المسيحية – بقائهم حتى الفترة التي حرمت فيها ممارسة الديانات الاخرى في عهد الملوك الكاثوليك.

وهكذا، فانه في المدن التي اصبحت تنتمي نهائياً الى (الجهة الشمالية) للحدود، كان لايزال يوجد فن اسلامي كامل ولو انه كان يعتبر جزأ من حضارة متراجعة يصعب عليها ان تقاوم التأثيرات الوافدة من مناطق اوربية اخرى، وحتى بعد الغاء العبادتين الاسلامية واليهودية ظل الموريسكيون هناك باعداد كبيرة في بعض المناطق الريفية كسكان مسلمون مسموح بوجودهم على مضض من قبل جيرانهم المسيحيين الذين كانوا يرون فيهم حلفاء للقراصنة البربر الذين كانوا يقدمون من الشواطىء الافريقية للبحر الابيض المتوسط.

امتد الوجود العربي على ارضنا اذن حتى عام 1609م عندما تم الطرد النهائي لاخر الفلاحين المسلمين مع ذلك، فأننا سنهتم هنا فقط بالحضارة الاسبانية – الاسلامية

التي ترعرعت في تلك الاماكن وفي الازمنة التي كانت تعتبر فيها الحضارة المسيطرة. اننا نقترح على المسافر ان يتبع بعض الطرق التي تجعله يتعرف على اهم الروائع التي تجمعت في هذه الاراضي منذ تأسيس الاندلس وحتى هزيمة اخر ملوكها.

الاندلس:

ان الموجة التوسعية التي ولدت في شرقي البحر الابيض المتوسط في ظل العقيدة الاسلامية قد وصلت الى شواطئنا عام 710م قام القائد البربري طارق بعبور المضيق ووجد في شبه الجزيرة دولة مليئة بالمنازعات وغير قادرة على ان تقاوم اي عدو خارجي كان غيطسة ولذريق يتنازعان على عرش المملكة القوطيةوكان الثاني منهما حسب اسطورة غير موثوق بها، قد اهان ابنه الكونت بوليان حاكم سبتة والموالي للاول بحيث ان بوليان رغبة منه بالانتقام لم يتردد في ان يترك المجال حراً لمرور الغزاة الذين كانوا ينتظرون اللحظة المناسبة لجعل الاراضي جزأ من الامبراطورية الاسلامية. الحقيقة كانت د ون شكك غير ذلك ولو لم تكن كبيرة الاختلاف على كل حال. اما اليهود الذين كانوا يعانون من موجات عدم التسامح الديني التي كانت تجتاح المملكة المسيحية من حين لاخر فلا شك انهم نظروا بعين الرضى الى وصول تلك الحضارة الجديدة التي كانوا يستطيعون ان يتعايشوا معها بشكل افضل وقد قيل عنهم انهم فتحوا أبواب المدن وسهلوا الدخول الى القلاع والحصون. والحقيقة انه على الرغم من صعوبة التقييم الدقيق للدور الذي قاموا به، فانه بالتأكيد مما لايمكن الاستهانة به.

وضعت تلك العملية الاستكشافية الاولى التي قام بها المسلمون. أمامهم واقعا مغرياً فعلاً. لذلك بدأت في السنة التالية عمليات الفتح التي تقدمت دون ان تلقى مقاومة تذكر وقد بدأ الاسلام الذي كان يضم انذاك العراق وسورية وايران وكل شمالي افريقية. بالتوسع في القارة الاوربية. وتمكنت الجيوش العربية خلال ثلاث سنوات من فتح شبه الجزيرة الايبيرية وفي عام 719م وصلت الى تربونة وتابعت سيرها دون ان تمر

بأية هزيمة حتى عام 732م. حين استطاع شارل مارتل. حاكم الفرنجة ان يوقف زحفهم في اواسط بلاده.

في ذلك الوقت كانت حدود الاندلس محددة نوعاً ما بأستثناء الممالك المسيحية الصغيرة التي كانت توجد في منطقة كنتابريا، فأن كل أراضي شبه الجزيرة أصبحت خاضعة للسيطرة الاسلامية، ان ممالك أشتورياس وبعد ذلك بقليل الامبراطورية التي كونها شارلمان، هي التي سيقع على عاتقها ايقاف اندفاع المسلمين الذين كانوا يضيفون في الوقت ذاته الحصار على القسطنطينية في الطرف الشرقي للقارة الاوربية.

مع ذلك لم يكن الموقف سيئاً جداً كما يمكن ان نستنتج من هذه السلسلة الطويلة من المعارك، لقد كانت الفتوحات نظراً لعدم قدرة الشعب القوطي على تنظيم نفسه للمواجهة كانت سهلة وسريعة وغير دموية، وقد استقرت جاليات كبيرة من الجنود من ذوي الاصل العربي بصورة رئيسية، في غوطة نهر الوادي الكبير وأخذت تعمل على انشاء مدن زاهرة واقتسام أراضي الغنيمة بينهما، لم يكن التعايش صعباً اذ ان الزواج المختلط والتسامح تجاه اليهود والمسيحيين كان علامة مميزة لتلك الجاليات التي عرفت مع ذلك الخصومة بين قطاعين ساهما معا في الفتوحات وهما العرب الذين كانت لهم السيادة والمقاتلون من شمالي افريقيا الذين كانوا تحت امرتهم، ان حركات التمرد التي قام بها البرابره أخمدت بسرعة من قبل حملة جديدة من السوريين واليمنيين ضمنت نهائياً السيادة العربية على المحاربين الذين كانوا ينتمون الى قبائل البدو الرحل في المغرب.

وفي غضون فترة لاتتجاوز نصف قرن هدأت النفوس واستند توزيع الاراضي والمناصب الى اسس متينة نسبياً، أصبحت الاندلس تعتبر وكأنها مقاطعة اسلامية في الطرف الغربي للاسلام، تابعة لافريقية (تونس حالياً) وعاصمتها القيروان.

وصول الأمويين

مع ذلك، كانت النزاعات في دمشق بين السلالتين الاموية والعباسية تزداد عنفاً مع مرور، وكان انتصار العباسيين سبباً في ان يبحث الامير عبد الرحمن عن منفى يتوجه اليه

بهدف تأسيس مملكة جديدة وقد وجد المكان على وجه التحديد في تلك المناطق التي جرى ضمها للاسلام مؤخراً والقابلة لان تتحول الى دولة قوية، وهكذا في عام 756 ولدت امارة الاندلس المستقلة والمزودة ببنية قانونية متينة وجيش دائم.

في ذلك الوقت ظهر التكوين الاجتماعي لاسبانيا المسلمة بكل التعقيد الذي ميزها طوال القرون الثمانية التي عاشتها، كان المجتمع الاندلسي من العرب كعنصر عام ومن النواة القادمة من الشرق الاوسط كقطاع مسيطر علاوة على المحاربين القدماء الوافدين من الشمال الافريقي والذين استقرو هنا منذ اللحظة الاولى والمستعربين أو المسيحيين الخاضعين والمولدين أو الاسبان الذين اعتنقوا الاسلام و((الصقالبة)) اي العبيد القادمين من اوربا وكذلك اليهود الذين لم يكونوا ميالين الى اختلاط الدم ول انهم تبنوا اللغة العربية طواعية من اجل انتاج ثقافي افضل، ان ما يمكن ان يشكل حضارة غنية متنوعة، كان في الوقت ذاته عامل تجزئة داخل الامارة الحديثة التأسيس، وان النزعة القومية في صالح كل ما هو سوري هذه النزعة التي كان يدعمها الامير عبد الرحمن الاول نفسه، قد لقيت مقاومة من قبل المستعربين وكذلك من قبل الثائرين الذين ظهروا في القرن التاسع وقادوا حرب عصابات مكونة من المستعربين والمولدين ومدعمة بمساعدة خارجية من قبل الفاطميين الذين كانوا يشكلون سلالة راغبة في التوسع مركزها تونس، ان اتصالات المستعربين بالممالك المسيحية الشمالية ستضمن نهائياً تبادل التأشيرات بين الثقافتين السائدتين طوال القرون الثمانية التي استمر فيها الحوار بين المسيحيين والمسلمين خلال هذا القرن نفسه، تعددت اسباب التآمر على الامراء المتعاقبين ولجأ هؤلاء اكثر من مرة الى انزال العقاب الصارم بالمتآمرين، ان ((يوم الحفرة)) الذي جرت احداثه في طليطلة والذي قتل فيه أبرز شخصيات المدينة – وكان اغلبهم من الموالي – بعد ان وقعوا في فخ نصب لهم، وكذلك استشهاد عدد كبير من المستعربين القرطبيين الذين كانوا يصرون على اثارت السلطات بتهجمهم على الدين الاسلامي، كان ذلك كله أمثلة على التكوين المعقد للامارة مع ذلك لانستطيع ان نقول ان القرن التاسع كان قرناً مظلماً من وجهة نظر الحضارة التي كانت تتكون في مدن الاندلس الزاهرة. ان فترة حكم عبد

الرحمن الثاني التي تحتل قسماً كبيراً من النصف الاول من هذا القرن تميزت بازدهار رائع للعلوم والفنون وكانت على علاقة وثيقة بالثقافة البراقة التي كانت تحيط البلاط بهالة من الروعة، وبدون ان يعير كبير أنتباه إلى العداوة القديمة بين سلالته -الاموية- والسلالة العباسية التي كانت قد طردت من دمشق أحد أسلافه وهو عبد الرحمن الاول. فأن الامير القرطبي نقل بدقة التنظيمات السياسية للخلافة السورية. أوجد لنفسه خاتماً خاصاً وقام بضرب النقوذ وأسس الطراز - مصنع المنسوجات والسجاد - وأرسل من يأتيه من بلاد مابين النهرين بكتب الفلسفة والفلك والطب التي كان يعتبرها ضرورية من أجل أنشاء مدرسة للعلماء. أن التبادل التجاري وبرنامج البناء الواسع الذي أقره عبد الرحمن الثاني. كل ذلك يؤكد الازدهار الذي كانت تتمتع به هذه الامارة. ولكن ربما كان أهم شيء لدى أبراز التأثير الشرقي العميق في الثقافة الاسبانية - الاسلامية. هو وجود مغن عراقي في قرطبه أسمه زرياب، وصلت هذه الشخصية الى الشواطئ الزاجية المشغولة التي ستحل نهائياً محل الكؤوس المحلاة بالذهب والفضة في الوقت ذاته. قام عالم فلكي قرطبي باكتشاف صنع الزجاج كما حاول القيام بتجربة طليعية للملاحة الجوية عن طريق طيرانه في الهواء وحط على الارض دون ان يتاذى بالكاد.

خلافة قرطبة

الاندلسية بعد أحداث يبدو وكأنها مأخوذه من قصة ((الف ليلة وليله))كان تلميذا للموسيقى المفضل لدى الخليفة هارون الرشيد وحظي بفرصة أظهار مواهبه أمامه. لكن الغيرة التي اثارها في نفس معلمه بعد ان غنى بشكل رائع، كانت قوية لدرجة أنه رأى نفسه مضطراً للهرب بعيداً عن البلاط لآنقاذ حياته. وقد أسرع عبد الرحمن الثاني لتلقيه في قرطبه وتحويله الى أحدى الشخصيات الاكثر تأثيراً، ولقد اسس من جملة ماأسسه خلال أقامته في الاندلس، معهداً للموسيقى، نشأت فيه على مايبدو تلك الموسيقى الفريدة من نوعها والتي لن تتكرر وهي الفلامنكو. ولقد ادخل كذلك العود ذا الاوتار الخمسة وكان له باع في كل مجالات الترف المعروفة في البلاط بدءا من تحضير الاطعمة

وحتى تصفيف الشعر، مرورا بالقواعد الصارمة لكيفية أعداد المائدة والتجديد في الاشكال أن الفاطميين الذين كانوا يحرصون على حرب العصابات في الريف طول القرن التاسع والممالك المسيحية التي لاحظت إمكانية أستعادة الارض ولو على المدى البعيد، كانت تجعل أمارة قرطبة تشعر بقسط أقل من الآمن مع الزمن، ولم تعد التبعية للاسلام الشرقي تشكل اي ضمان للبقاء نظراً لأن الاتصالات كانت تتعثر بسبب تعرض حكومة تونس لها. لذلك فأن قرار تشكيل الخلافة في المغرب لم يعد ممكناً فقط بل أصبح مناسباً فعلاً.

عبد الرجمن الثالث هو الذي قرر في عام 929م تأسيس الدولة المستقلة مع شروعه في الوقت ذاته باتباع سياسة المصالحة مع المولدين والمستعربين، ولقد تمكن من أن يجعل هو وخلفاؤه من بعده القرن الذي عاشوا فيه قرن سلام نسبي رافقه ازدهار ثقافي لم يعف له مثيل من قبل، ولقد إمتلات غوطة نهر الوادي الكبير بالمزارع وتجاوز عدد سكان قرطبة مليون نسمه، أما المسجد الجامع ومدينه الزهراء الخلافية فقد جمعت أروع المنتجات الفنية لذلك العصر: تم تنظيم جهاز في البلاط قادر على بث الرعب في النفوس وبصورة خاصة على بث الحيرة بين المبعوثين المسيحيين الذين كانوا يفدون إلى قرطبة بين الحين والآخر للقيام بعقد معاهدات، وجمع الخلفاء كميات هائلة من الكتب في مكتباتهم وأحاطوا أنفسهم بمشاهد مقتبسة من القرآن الكريم وصار الشعراء يصفون الاندلس كأنها حديقة غناء كما أرتفعت في طليطلة وهي مدينة الزهراء أبنية مواصفاتها شبيهة بمواصفات معبد سليمان.

كان موت الحكم الثاني في عام 976م بداية النهاية إذ أن خليفته هشام الثاني كان صبياً في سن الحادية عشرة وأضطر الى ترك مقاليد الامور في يد المنصور الذي كان قائداً طموحاً وذكياً.

ولقد مرت أياه الخليفة الشاب بعيدة كل البعد عن السلطة التي لم يعد مركزها قرطبة أو مدينة الزهراء بل أنتقل الى مدينة إدارية جديدة مدينة الزهراء – التي أمر ببنائها قرب العاصمة. في تلك المدينة التي أندثرت. كانت تتخذ القرارات في فترة كثرت فيها مؤامات القصر والحملات العسكرية ضد مملكتي ليون وفستاله. حوالي سنه 1000 م.

أصبحت الاندلس دولة عسكرية قوية ذات نفوذ قوي حتى في مناطق الاطلس. مع ذلك فغنه سرعان ما ستبدأ الانقسامات الداخلية والاظطرابات بالظهور. وقد تميزت السنوات الثلاثون الاولى من القرن الحادي عشر بالحرب الاهلية في الاندلس. حتى إذا كانت سنة 1031م. ثم ألغاء الخلافة وعين مجلس للوجهاء في قرطبة كان مقدراً له الفشل منذ اللحظة الاولى. أما المدن القوية التي كانت هادئة في الفترة السابقة فأنها لم تتردد في إعلان أستقلالها مما أدى إلى تفتت الدولة وتقسيمها إلى مايسمى بممالك الطوائف.

ملوك الطوائف

لأول مرة أستطاع الصقالبه (أسرى حرب قدماء أعتقلوا مع الزمن) والمنحدرون من المولدين وكذلك البرابرة، أن يصلوا الى السلطة السياسية. ولقد تحول عدد من الدويلات الاسلامية غلى التبعية للممالك المسيحية التي تقوت خلال عمليات الاسترداد وهو لاسم الذي أطلقته هي نفسها على تلك العمليات. وكان على سرقسطة وطليطلة وبطليوس وأشبيلية وبلنسية وطرطوشة ان تواجه كل منها على حدة العدو المعتاد في قرن مضطرب لم تكن فيه التحالفات دائما انعكاساً لوحدة حقيقية وعلى ما يبدو فان عروض التعاون بين احد ملوك الطوائف واحد الملوك المسيحيين ضد جيش ما قد كثرت في تلك الفترة دون ان يكون اختلاف الديانات عقبة دون ذلك ولم يتردد السيد القمبيطور نفسه الذي اصبح يعرف في التاريخ كمثل للرعب ضد المسلمين في ان يعرض خدماته كمقاتل على احد ملوك الطوائف في سرقسطة كما لم يتردد في ان يصبح حاكماً لبلنسية المسلمة، ان سقوط طليطلة في ايدي القشتاليين عام 1085م هو الذي نبه المسلمين اخيراً الى وضعية الامان المضطربةالتي كانو يعيشون فيها.

دول شمالي افريقية

كان قرب المرابطين الذين كانوا قد سيطروا على كل الشمال الافريقي والصحراء وأراضي السنغال الحالية، هو الضامن الوحيد لأمكان مواجهة المسيحيين، مع ذلك فأن طلب المساعدة لم يتم دون تحفظ فأن مسلمي الاندلس المترفين والمثقفين لم يكونوا يثقون

بأولئك المحاربين المتصوفين والمتعصبين الذين كانوا مستعدين لان يطبقوا في اي لحظة تعاليم القرآن المتعلقة بالجهاد، في عام 1086م (بضعة أشهر على سقوط طليطلة) هزم الافريقيون ملك قشتاله الفونسو السادس في معركة الزلافة قرب بطليوس ودون ان تنقص من اهمية هذا الانتصار، نقول انه لم يكن اكثر من حدث عابر اذ انه بعد عودة المرابطين فأن المسلمين الاسبان عادوا الى نفس حالة الضعف التي كانوا يعانوها قبل ذلك.

بعد ثلاث سنوات عادوا الى اجتياز المضيق مصممين هذه المرةعلى البقاء مع ملوك الطوائف وتم استيلائهم بدون مقاومة تقريباً على غرناطة واشبيلية وبعد ذلك بطليوس وبلنسية وسرقسطة، ولقد اصبح من الممكن بعد ذلك اعتبار الاندلس كمحافظة تابعة الى لامبراطورية المرابطين الافريقية والتي كانت عاصمتها مراكش.

لكن المحاربين بدأوا يفقدون شراستهم شيئاً فشيئاً بسبب الثقافة المترفة التي كانت لاتزال توجد في الاندلس منذ الفترة السابقة، هذا وان عجزهم على استرداد طليطلة الى جانب ضياع سرقسطة وقلة ثقة الاندلسيين بسادتهم الجدد المتكبرين كانت تشكل عوامل اخرى للفشل وتكررت الطريقة التي ادت الى قيام دولة المرابطين، ففي حدود منتصف القرن الثاني عشر جاء دور الموحدين وهم سلالة حربية ولدت في جبال الاطلس وتسيطر عليهم روح اسلامية محضة قادتهم الى فرض انفسهم في منطقة ذات احوال متدهورة وقد تعددت الحصون في هذه الفترة التي كان مركزها اشبيلية والتي ناوستها الممالك المسيحية التي صارت اقوى من قبل في عام 1212م وجهت معركة العقاب اهم ضربة لاسبانيا المسلمة، ويمكن اعتبار استيلاء المسيحيين على قرطبة سنة 1236م وعلى اشبيلية سنة 1248م كنهاية للتاريخ الاندلسي لو لم تكن مملكة غرناطة الصغيرة قائمة بعد غرناطة بني نصر بعكس ما كان متوقعاً، فقد ظلت غرناطة والمرية ومالقة في ايدي المسلمين حتى نهاية. وان جناحاً محاطاً بالورود المتسلقة يشغل وسط المزرعة ويشكل بالنسبة لسكانها للعزلية القرن الخامس عشر، هذا ولا نرى ضرورة للالحاح على روعة هذه المنطقة المتميزة اذ ان المسافر سيجد لوحده اسباباً كافية تماماً للاعجاب بهذه المملكة الصغيرة التي اراد بعض المؤرخين ان يروا فيها اخر اشعاع لعصر وسيط وضاء اذ ان هذه الدولة التي

كانت تعترف بالتبعية لقشتالة والتي كانت منعزلة عن بقية بقاع الاسلام، عزفت كيف تخلق ثقافة أصيلة ورقيقة للغاية، ويبدو ان بقاءها يرجع الى الشروط الجغرافية والى دبلوماسيتها الماهرة وكذلك الى كون الممالك المسيحية منهكة القوى وينقصها العدد اللازم من السكان الكافين لتعمير تلك المناطق في حال سقوطها بأيديهم، أخيراً فأن رغبة الملوك المسيحيين في خلق دولة موحدة وحديثة وكذلك النزعة الدينية لايسابيل ملكة قشتالة، كان هو السبب في الاستيلاء على غرناطة وبالتالي الزوال النهائي للحضارة الاسبانية – المسلمة، أما طرد ابو عبد الله آخر ملوك غرناطة فسيظل دوماً حدثاً تاريخياً بشيء من الحنين المناسب لكثير من التفسيرات الرومانسية.

الريف

من المحتمل ان يكون اول تغيير لطبيعة المنطقة قد ادخله عبد الرحمن الاول عندما أمر بان تزرع في منزله القرطبي نخلة واحيدة كان من شأنها ان تذكره دائماً بوضعه كمنفي، منذ تلك اللحظة بدأت الاندلس تغطي بنايات موزعة توزيعاً جيد وتجري تغذيتها بكل عناية، أقنية المياه، تغطية الجوانب بالتربة وظهور زراعة الكرمة والنخيل وأشجار التين وغيرها من الاشجار المثمرة التي ستجعل من هذه الاراضي جنة حقيقية ستضمن حسب قول الشاعر في الثيرة (بلنسية) لسكانها الخلاص الابدي اذ ان «من عاش في الجنة لايدخل النار». من خلال مؤرخي ذلك العصر

نعرف انه كان يوجد فرق بسيط بين الحديقة والبستان، فأن مزرعة ما يجب ان تكون مزودة بآبار وسواق من اجل الري وكذلك ببركة محاطة بالرياحين و «مناطق ذات خضرة دائمة تبهج النظر» وأشجار مكسوة بالاوراق خلال كل الفصول وممرات مظللة بالدوالي توصل إلى الاراضي المزروعة، وهذا والتأمل، هذه المنازل الريفية تشبه في حياتها المترفة المنازل التي كانت توجد في أيطاليا في عصر النهضة لم يتبق لنا منها سوى الذكرى مع ذلك فإن المزروعات وأقنية المياه وحتى القواعد القانونية التي تسود الري في بلنسية (حيث ماتزال محكمة المياه تنظر في النزاعات بنفس المعايير المزروعة عن ماضيها المسلم)،

كل ذلك يعتبر شاهدا حيا لتلك الفترة الرائعة التي كانت المناظر الطبيعية فيها أنعكاسا للحياة المتحضرة، قصر الحمراء فقط، بصفته قصراً منعزلا عن حياة المدن، يحتفظ بطابع بعض المهندسين المعماريين الذين كانوا يعتبرون أن الفراغ الخارجي وفخامة الزخرفة الداخلية هما أمران متصلان صلة وثيقة.

المدن

حتى سكان المدن المزدحمة والمليئة بالضوضاء كانوا يجدون الفرصة لقضاء فترات منعزلة هادئه في المكان الذي يعتبرونه الجزء الرئيسي من المسكن وهو الباحة التي كانت تشتمل دائما على بركة محاطة بالنباتات بل اذا كانت مساحة البيت تسمح بذلك بالاشجار المثمرة التي كانت تنتشر ظلالهاوتعطر الاجواء اليومية للحياة العائلية.

مع ذلك فإن المظهر الخارجي للمدن الاسبانية – المسلمة، كان يعتبر للوهلة الاولى تراكما فوضوياً لأبنية متقاربة جدا فيما بينها المدن ذات الشوارع المستقيمة التي تم توازنها عن المعسكرات الرومانية ظلت مجهولة من قبل الغزاة الشرقيين الذين كانوا يعتبرون الحياة العمرانية كنوع من تبادل المهام في تطور مستمر، غير أنه كان يوجد مركز منظم وهو – المدينه – حيث كان يوجد المسجد الجامع والحمامات الانيقة والمتاجر الفخمة وكان يوجد صور حول هذا القطاع من المدينة. يتصل بالارياض أو الضواحي – المسورة هي أيضاً بدورها – بواسطة بوابات متواضعة كان يتم أغلاقها أثناء الليل. أن كلا من هذه الارياض كان يشكل مدينة صغيرة في حد ذاتها لأنه كانت تجري فيه حياة شبه مستقلة إذ يشتمل على المساجد والحمامات والافران والفنادق بحيث كان سكان الربض يعيشون حياتهم الخاصة ويستطيعون البقاء والمقاومة في حال فرض الحصار عليهم وبصورة عامة فانه كانت توجد في كل مدينة من مدن الاندلس أرباض للمستعربين واليهود مختلفة فيما بينهاولو ان المسلمين أنفسهم كانوا يتوزعون احياناً حسب مهمتهم او حسب المكان الذي قدموا منه.

كانت الفوضى ظاهرية فقط بعض الشوارع كـان لهـا دور المحـاور الرئيـسية اذ انـه انطلاقاً من المركز الديني – التجاري، كانت تتصل بالضواحي بحيـث توجـه بهـذا الـشكل تحركات السكان وتعمل على تجمع اولئك الذين كانوا يتجهون الى المركز ليس فقط لتأديـة صلاة الجمعة – التي كان عليهم ان يؤديها في المسجد الجامع – بل لقـضاء حاجـات كـثيرة اخرى.

وكانت هذه الشوارع بصورة عامة متعرجة تمتـد الى مـا وراء الـسور وتحـدد بـشكل طبيعي مواقع الارياض التي كانت تـشكل حـاجزاً دفاعيـاً منهـا، كانـت تنطلـق الـشوارع الثانوية التي تتفرع بدورها الى ازقة ودروب تعتبر جزأ مـن الممتلكـات الخاصـة، ويـستطيع الزائر ان يرى في الاحياء القديمة لقرطبة وطليطلة ومدن اسبانية اخرى وجـود هـذا النـوع من الممرات التي يقتصر دورها على الايـصال الى بعـض المـساكن مـن جهـة اخـرى فـان تخطيط الطرقات الذي كان يتجاوب مع تخطيط المنـازل الـتي كـان بناؤهـا يتـدرج حـسب الاراضي المتوفره كان يـضفي عليهـا ظـاهرة المتاهـة الـتي تميـز هـذه المـدن المليئـة بالزوايـا والمنعطفات.

مع ذلك فان الهدف الرئيسي الذي كان يتجـه الى الحفـاظ علـى الخلـوة الشخـصية على الرغم من ضوضاء المدينة قـد تم ادراكـه تمامـاً فالفوضـى في الحقيقـة كانـت تـشوب تصميم المدينة فقط اذ ان كلا من النشاطات التي تجـري فيهـا، كـان لـه مكـان خـاص بـه ومحدداً تمام التحديد.

ولم يكـن المظهـر البـسيط للأبنيـة ليتوافـق أبـداً مـع الـداخل المريحـوالمترف، ان الاصرارعلى الخلوة والـسرية الـتي كـان يجـب ان تحيط بحيـاة النـساء جعلـت مـن تلـك المساكن جزراً حقيقية لا تكاد تتصل بالحياة العامة الا بواسطة رواق كان من المـستحيل ان يعرف المار في الشارع اي شيء عما يحدث في تلك المـساكن اذ ان بـاب الـدخول لم يكـن يؤدي أبداً الى باب أخر وراءه مباشـرة بـين الـشارع والباحـة كانـت توجـد دائمـاً فـسحة مظلمة لابد ان يتوقف فيها أي دخيل قبل أن يتابع سـيره، وكانـت النوافـذ الـصغيرة ذات

المشربيات هي الفتحات الوحيدة المطلة على الخارج. فيما عدا ذلك، فـأن التهويـة والنـور كانا مضمونين بسبب وجود الباحة.

كانت أمكنة اللقاء قليلة: فالجـامع والـسوق – الـسوق الثابـت أو المتجـول – كانـا يعتبران مكان ألتقاء السكان. وكـان الاول دون شـك هـو البنـاء المتميـز ومـع ذلـك فـإن أرتفاعه لم يكن يتجاوز بكثير أرتفاع المباني المجاورة. سيكون أمام الزائر فرصـة التعـرف في قرطبة على نموذج المساجد الاسبانية – المسلمة الاكثر شـيوعاً، والـذي يتكـون عـادة مـن عدد من الصحون المتتابعة التي تسبقها باحة كبرى.المئذنة هي الوحيـدة الـتي كانـت ترتفـع فوق سطح المسجد بحيث يهتدي بها ىالاجانب التائهون. وقد كانت الفنادق والحمامـات تكمل هذه القائمة من الابنية العامة. أما الفنادق فكانت موجودة في الـشوارع الرئيـسية أو قربها وينزل فيها المسافرون (مـن الكلمـة العربيـة فنـدق جـاءت كلمـة فونـدا) وتخـزن في مستودعاتها البضائع التي يأتي بها التجار معهم. ولقد كان حوش الفحم في غرناطـة أحـد أهم تلك الفنادق ويسمح لنا بالتعرف على البنية العامة لتلـك الابنيـة الـتي كانـت شـبيهة جدا بمساكن الاحواش التي يكثر وجودهـا في نظـام الهندسـة المعماريـة الـشعبية الاسـبانية حتى وقت قريب، وكانت الحمامات تقوم بدور هام جدا في المشغولة في الورش الاسـبانية – المسلمة لقيت بسرعة مشترين لها في أماكن بعيدة جدا. فاذا أضفنا الى ذلـك كلـه. روعـة قصورها وتقدم علومها. يكون من غير الممكن أبـدا أن ننكـر بـأن الانـدلس كانـت تعتـبر مرآة للتقدم بالنسبة لأمراء أوروبا.

القصور

كانت القصور الاندلسية المنعزلة بصورة عامة عن ضوضاء المدن والمحاطـة بأسـوار، صورة عن المدن التي كانت تنمو حولها. وكانت الابواب المفتوحـة في الاسـوار توصـل الى حدائق تحيط بكل المباني التي تـسكنها مجموعـات مـن العلمـاء والمـشرفين علـى المكتبـات والموسيقيين والشعراء الى جانب العدد الوفير من اعضاء العائلـة المالكـة. والقـصر في حـد ذاته لم يكن سوى عدد من الابنية تتتالي بحرية ودون مراعاة للتناسب او لـضرورة التنظـيم

العمراني. النواة الرئيسية كانت عملياً مشابهه لاي مسكن عادي: ساحة مستطيلة في وسطها بركة اونافورة تتوزع اماكن الجلوس على جانبها. هذه الاماكن المرتبة حسب الطراز الشرقي للايوان (مستطيل بدون احد جانبيه الصغيرين ومغطى بقبة) ومن خلال تكرار هذا التصميم البسيط ظهرت هذه المجموعات من القصور التي يصعب فيها على الانسان دائماً تحديد اتجاهه.

ونظراً لانه لم يكن لهذه القصور واجهة بارزة ونظراً للقواعد التي كانت تسيطر على كل الهندسة المعمارية العربية للمساكن، فان المظهر الخارجي للقصور كان فقيراً ولم تكن تتميز فيها سوى مكعبات الحجارة التي كانت تبنى بها الاسوار وتحيط بالقصر، كانت الجدران المبنية بالطوب وبعض الابواب المبنية لغرض معين (مثل باب العدل في قصر الحمراء) هي الاشكال التي تتوج مرتفعاً من الارض، وبعد ان يشاهد الانسان تلك الابهاء الفخمة الموجودة في تلك القصور، يمكن ان يلاحظ شيئا من الحتاء الديني نظراً لغياب التفاخر والمباهات داخل تلك المساكن الملكية. من جهة اخرى، لم تكن المواد ملائمة تماماً لاقامة ابنية دائمة فالأجروقوالب الطي كانت تكفي اولئك البنائين الذين لم يترددو مع ذلك في استخدام الرخام في عناصر الزخرفة على كل حال يمكننا كذلك ان مدن الاندلس وتعتبر الابنية الاكثرارتياداً كانت تفتح بالتناوب للرجال والنساء وكان يتردد عليها في المدن الصغيرة، المسلمون واليهود والمستعربون (ولم كان ذلك بشكل منفصل)كما ان حمامات البخار تعتبر نموذجاً واضحاً لتلك الحضارة المترفة.

ونظراً لموقعها الاستراتيجي وكذلك للتبادلات التجارية الكثيرة التي كانت تنتقل عبر الاراضي الاسلامية، فقد اصبحت الاندلس ممراً اجبارياً لكل التجار الشرقيين الاغنياء الذين كانوا يفتشون في انحاء اوربا عن اسواق جديدة من جهة اخرى، فان بعض المنتجات الزراعية وكذلك الجلود والحرير والخزف والمعادن نلاحظ نوعاً من الحس المسرحي في التناقض العنيف بين حواجز الطوب البسيطة و مشاهد العظمة التي كان البلاط يحيط نفسه بهاائه نوع من الحس المسرحي التي لاتصعب معرفة سببه وهو التأثير العميق في نفوس المبعوثين المتكبرين.

لقد وصلتنا مدائح كثيرة في وصف تلك الابهاء بحيث انه يصعب علينا ان نصدقها بحرفيتها، توجد اخبار عن بركة مليئة بالزئبق في مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الثالث، كان الهدف الوحيد منها انعكاس اشعاعات تقع بدورها على قاعة مجاورة مكسوة بالذهب والفضة والعاج والابنسوس والرخام والزجاج. الروايه نفسها تقدم لنا الدافع الى تلك النزوات (عندما كان الخليفة يريد ان يبهت شخصاً ما، كان يوعز الى احد عبيده بأن يحرك الزئبق فيبدو في الصالة بريق ضوئي تنخلع له القلوب........) حتى في حال تخفيف الوصف الوارد في الزاوية وحتى في حالة استبدال الزئبق بالماء والمعادن الثمينة بسطوح براقة بسيطه كالرخام والخزف الاندلسي الرائع، يكون من السهل تصور دهشته زوار الشمال امام هذه الزخارف الرائعة البراقة، هذا واننا لانعلم الى اي حد يمكننا ان نشك في وجود الزئبق لان كميته في الاندلس كانت على ما يبدوا، كافية لارضاء نزوات بلاط فخم.

كانت الالعاب الضوئية بالتأكيد شائعة في عالقصور: في طليطلة كانت توجد بركة – لم تؤكد لنا الاثار صحة الرواية – مليئة بالماء في وسطها جناح زجاجي. (كانت المياه تساق الى اعلى القبة بواسطة عملية هندسية ثم تسقط من الاعلى محيطة بالجناح الزجاجي بحيث ان هذا يصبح مكسواً بطبقة مائية تتدفق باستمرار.... وفي الداخل كانت تضاء الانوار ويبدو مشهد رائع) بالتأكيد لم يكن ذلك المشهد سوى ظهور ألوان قوس قزح.

اذا صدقنا اولئك الرواة الذين كانوا يعملون دون شك على ارضاء ملكهم فقد كانت الاندلس بذلك أقرب الى الاساطير الشرقية منها الى التاريخ الموثق، مع ذلك فان هذه الاوصاف المبالغ فيها تجعلنا نتفهم اولئك البنائين الذين كانوا يضعون نصب اعينهم المدن الاسطوريةالمذكورة في القران والكتابات السابقة للاسلام، ان وجود النوافير المحاطة بتماثيل الحيوانات كما هو الحال في ساحة الاسود بقصر الحمراء ما هو الا وصف لاسطورة معبد سليمان الواردة في التوراة.ذلك المعبد المحاط بأثني عشر نورا يخرج الهواء من بلعومها. أما الاسود الاثنا عشر فهي شموس منطقة البروج التي تعتبر منابع للحياة: من فمها تخرج المياه التي تصل من الجهات الاربع.

يبدو من الواضح أن كل الانشاءات العربية كان لها مغزى رمزي وحكمه مكثفة في الاساطير كانت ترافق دون شك بناء قصر ما: فالترف المبالغ فيه كان لابد أن ترافقه عظة آلهية تشيد بتوضع النفس – كبرياء الفنان كانت دائما عرضة للعقاب وصفة دوام الاشياء كان لابد لها أن تتعارض مع الفكرة القائلة بأنه لاشئ باق إلا الله. حتى أن أقوى ملك في العالم، كان يروق له أن يظهر أمام مدعويه بلباس بسيط بعد أن يكون هؤلاء قد اجتازوا أجنحة القصر المترفة وأعجبوا بملابس الحرس الملكي، ربما كان هذا السر في تفهم التناقص بين المظهر الخارجي البسيط للقصور والمساجد والترف في زخرفتها الداخلية.

المساجد

على الرغم من أن العرب لدى وصولهم لم يترددوا في أستعمال الكنائس القوطية كأماكن للصلاة. فانهم سرعان ما بدأوا بتعمير المساجد. كانت كلها تستجيب لنموذج واحد يسهل تكراره نظراً لبساطة علاوة على أنه كان مناسباً جدا لتأدية وظيفته. كانت صحون المسجد المتماثلة تتتالى- كان أعراضها الصحن المتوسط – منفصلة بواسطة أقواس إلى أن تنتهي عند الجدار الذي يشير الى إتجاه مكة والذي يجب أن تتجه إليه الصلاة أي إلى القبلة. وبطبيعة الحال فقد كان يوجد في وسط الجهة القبلية محراب هو عبارة عن تجويف مزخرف زخرفة رائعة ويوجد بجواره المنبر الخشبي التي تتم منه أمامة الصلاة.

أمتداد لصحون الجامع، كانت توجد ساحة واسعة فيها أعمدة. مظلله بالاشجار وموزودة بنافورة أو عدة نوافير. وفي سفح هذه المجموعة المعمارية كانت تقوم مئذنه هي عبارة عن برج رشيق كان المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة من إعلاه بصوت جهوري. وحسب تقليد معروف، لاندري إذا كان يمكن الوثوق به، فأن المؤذن يجب أن يكون أعمى لأنه كان الشخص الوحيد في الدنيا الذي يستطيع الاطلاع على مايجري في باحات المنازل من الارتفاع الذي هو فيه.

الأساليب

ربما كان أول مايجب التنبيه إليه هو أن التقسيم المصطلح عليه للفن الاندلسي إلى تيارات عائدة إلى كل مرحلة من المراحل السياسية، هو في كثير من الحالات أمر سطحي. إن المبادئ التي سادت الاسلوب الجمالي للامويين في عصري الامارة والخلافة ستمتد إلى عصر الطوائف مع بعض التغييرات المحلية. وان دخول عنصر جديد فقط – كما هو الحال بالنسبة للمرابطين والموحدين – كان سبباً في إدخال تجديدات، لاتعتبر ثورية على كل حال إلا في حالات نادرة، من جهة أخرى فبأستثناء الابنية التي تعتبر ممثلة لكل فترة من الفترات كما هو الحال بالنسبة لمسجد قرطبة ولقصر الجعفرية في سرقسطة وللجيرالدا أو لقصر الحمراء، فأن الابنية الاقل أهمية لانكاد نستطيع أعتبارها ممثلة لأسلوب محدد. وحتى أثار المدجنين التي جرى بناؤها من قبل فنانين مسلمين، يجب النظر إليها كجزء من الانتاج الاندلسي الذي لاتلحظ في تطوره تجديدات في الذوق كفيلة بأن تضع حدا لأسلوب سابق.

الفن الاموي

بأستثناء قوس الحدوة الذي تبناه العرب وأدخلوا تحسينات عليه أعتباراً من الهندسة المعمارية القوطية، فأن كل العناصر التي تميز هذه الفترة الهامة جداً. متأتية من التأثيرات السورية والفارسية دون أن نستطيع بسبب ذلك أعتبارا من الفن الاموي الاسباني كمجرد نسخة. من جهة أخرى. فإن أستعمال المواد المتأتية من جراء هدم الاثار الرومانية التي وجدها العرب لدى وصولهم تيجان الاعمدة وسيقانها بصورة رئيسية – تجعل ذلك الاسلوب النني محددا تماما وذا مواصفات خاصة. وهذا ويستطيع المسافر أن يتثبت فيما بعد من ان وجود فنانين بيزنطيين، طلب أحضارهم خصيصا من أحدى عواصم الفن في تلك الفترة. قد ترك تأثيراً واضحاً في أساليب القرنين التاسع والعاشر. على كل حال ربما كان من المفيد أن يوجه الزائر أنتباهه إلى مواصفات مايسمى بالاسلوب الخلافي أكثر من محاولته البحث عن أصوله البعيدة.

ودون أن يعتبر مسجد قرطبة كنموذج قيم فريد من نوعه لهذه الفترة، فأنه يعتبر أفضل فرصة للبدء في التعرف على أساليبه الفنية الثابته، بالدرجة الاولى، وذا تركنا جانبا التصميم العام للبناء(إذ لكي نستطيع تقييمه يكون علينا أن نجرده من الكاتدرائية المسيحية التي أقيمت لاحقا في وسط تلك الغابة من الاعمدة) فأن الزائر يرى أمامه أفضل نموذج لأسلوب الاقواس الذي سيضل دائما قائما حتى بعد أنقضاء عصر الخلافة: يكمن التجديد هنا في الحل نفسه للمسألة إذ أنه في الاساليب الشرقية السابقة، كانت الغاية من القوس السفلي هي الحصول على الاستقرار اللازم لأن القوس لم يكن سوى حماله أي دعامة مستقيمة، بعد القوس الاول، يجي اللجوء إلى العمود الذي يصبح بدوره أمراً عادياً الكشفات (هذه الدعامات التي تسمح نظرا لكون قاعدتها أصغر من المساحة العلوية. بالانتقال من عمود رفيع إلى أخر سميك) ومن جديد، يرى الانسان الغربي مشهدا غريبا بالنسبة له واقع الجزء العلوي للمبنى أكبر حجماً من الجزء السفلي الحامل له يمكن أن يسترعي بشدة أنظار الزائر الكتعود على رؤية الهندسة المعمارية العائدة إلى العصور القديمة الكلاسيكية، النتيجة هامة جدا، خاصة في مكان مخصص لكي يجتمع فيه عدد كبير من المصلين في مساحة مفتوحة وغير مقسمة.

مع الزمن، خضع الاقواس لتعديلات جميلة جدا إذ أن الاقواس المفصصة والمتلراكبة أوجدت أشكالا جميلة حقا في الوقت الذي سمحت فيه كذلك بتوسيع المجال الفاصل بين الدعامات. ان التزاوج اللوني بين الاحمر (الطوب) والابيض (الحجارة الملمعة) سيتكفل بضمان وحدة القطاعات التي جرى بناؤها حديثا والتي كانت موجودة منذ عهد الامارة (إذ أن بناء مسجد قرطبة سيمتد على مدار قرنين من الزمن).

هنالك عنصر أخر للبناء يعتبر بارزا فعلا وهو القباب التي تغطي المجال للمحراب. وفي هذه القباب. نجد ان الانتقال من الفراغ المربع الى الغطاء الدائري، يتم على أساس الشكل المثمن الاضلاع والذي تجري تغطيته عن طريق مد أقواس نصفية تعمل وكأنها خطوط قاطعة لمحيط دائرة القاعدة. النتيجة هي صورة هندسية على شكل نجمة. يجدها

الزائر كذلك في طليطلة وفي أنحاء أخرى من الاندلس ويمكـن مقارنتهـا ببعض الاشـكال التي عثر عليها في كردستان وفي حوض دجلة وفي شمالى القوقاس.

بالنسبة لأذواق أو أساليب أولئك المهندسين المعماريين العبـاقرة في مجـال الزخرفـة، فأننا لا نعرف فقط مايقدمه لنا المسجد الجامع في قرطبة بل ماأبرزته الحفريات الـتي جـرت في مدينة الزهراء، فيما يتعلق بالمسجد فقد أستعانوا بفنانين بيزنطيين، تركـوا فيهـا لوحـات رائعة من الفسيفساء خلف مدرسة قائمة بذاتها ولقد كانـت لوحـات الفسيفـساء مكـسوة بالذهب المغطى بدوره وبهدف وقايته بطبقة زجاجية رقيقة.فسيفساء المحراب القـرطي تمثـل مشاهد نباتية شائعة في الفن الاندلسي، وفي المدينة الخلافية التي بناها عبد الـرحمن الثالـث، لجأ الفنـانون إلى أسـلوب تغطيـة المـساحات الملـساء وقواعـد الاعمـدة بلوحـات الرخـام المنحوت وبطرق وأشكال شبيهة بتلك التي يـستعملونها في تيجـان الاعمـدة وعـن طريـق أتباع أسلوب نجده كذلك في المسجد الجامع.

وهذا ويجدر بنا أن نلاحظ من جديد التأثيرات الـشرقية والفارسـية والعراقيـة – في نموذج من الشرفات الذي سيستمر وجوده لفترة طويلـة، إن هـذه الـشرفات ذات الجانـب المسنن والمتناقض من الاسفل الى الاعلى والتي نراها في المسجد الجـامع في قرطبـة. تكـون أحدى الخصائص الاكثر برزوا في الاسوار والقلاع الاندلسية.

فن الطوائف

رغم أنه من حيث التطور الشكلي، يعتبر ظهور ملوك الطوائف شبه منعـدم، فأننـا نعتمد على التقـسيم الى حقبـات تاريخيـة لنـسهل للمـسافر التحديـد الـزمني للاثـار الـتي يشاهدها أثناء سفره. سرقسطة وطليطلة وأشبيلية وملقة والمرية وميورقـة وكـل الـدويلات المـستقلة، أستـسلمت لأغـراء قرطبـة الامويـة وأكتفـت بنقـل الاشـكال المدرسـية للفـترة السابقة. أن عظمة الاعمال التي أقيمت في القـرن الحـادي عـشر تتحـدث كـثيراً لـصالحها على الرغم من عدم وجود تجديدات

المرابطون الموحدون

لم تترك سيادة المرابطين في الاندلس حوالي نصف قرن، سوى أثر طفيف. ففي تلك السنوات حدثت هجرة عدد من الفنانين والبنائين الاندلسيين نحو العواصم الافريقية للامبراطورية. لذلك، ولكي نتعرف جيدا على الفن الاسباني المسلم لتلك الفترة يكون من اللازم أن نعبر المضيق وأن نقوم بزيارة مدن الجزائر وتلمسان وفاس ومراكش حيث أستعملت الاساليب التي جرى أقتباسها من شبه الجزيرة، مع ذلك فإن السنوات السبعين الي إستمر خلالها حكم المرابطين كانت حاسمة بالنسبة لتكوين الفن الاندلسي، أن ضخامة البناء والتقشف في زخرفة المباني الرسمية، كانت المميزات البارزة في هذا النصف الثاني من القرن الثاني عشر والسنوات الاولى من القرن الثالث عشر اللذين كثر فيهما إنشاء التحصينات والمباني الكبيرة. مع ذلك، فإن المؤرخين يجدون تراجعا في الابداع وفي وحدة الاسلوب التي ميزت الانشاءات الاموية وكذلك الحساسية التي برزت فيما بعد في غرباطة النصرية.

فيما يتعلق بأعمال البناء، فإن الموحدين قد برزوا بصورة خاصة في التحصينات (هذا لا يعني أنهم لم يهتموا ببناء المساجد مثل مسجد أشبيلية مثلا). أما أسلوب الابواب المرفقية الذي كان معتادا في القرون السابقة فلقد تم تحسينه وأمتداده في نفس الوقت الذي جرى فيه أدخال تعديل هام: وهو الابراج الخارجية المبنية عللى مسافة قصيرة من الاسوار في النقاط الاستراتيجية للدفاع عن تلك الاسوار.

مما لاشك فيه أن برج الذهب في أشبيلية هو خير مثال على الهندسة المعمارية الحربية، علاوة على ذلك، فقد بدأ الاستعمال المكثف للطوب بحيث أدخلة على أستعماله تقنيات جديدة. قدر لها أن تستمر عبر الفن المدجن قرونا طويلة أما الطوب المسطح والمركب في الزوايا بهدف تشكيل أفاريز زخرفية، فإنه يعتبر مادة رخيصة وكفيلة بأعطاء نتائج رائعة. واهم برهان على ذلك، يجده المسافر في الجيرالدا بأشبيلية، حيث كسيت أجزاؤها السفلية بمجموعة من الاقواس الصغيرة التي تشكل شبكة من المعينات

تعرف بأسم ((شبكة)). أما مجموعة الاضواء والاظلال فأنها تقوم بدور هام في التشكيل الرائع لهذه المئذنه وفي كثير من الاعمال اللاحقة.

أن الاقواس المكونة من خطوط مستقيمة وأخرى مقعرة – محدبة هي تجديد أخر في اسلوب البناء الموحدي، تبدو هذه الاقواس بشكل واضح في شرفات الجزء الاوسط من جدران الجيرالدا وكذلك في كنيسة القيامة في دير لاس هوبلغاس في برغس.

وفيما يتعلق بالزخرفة ومن خلال القيود المفروضة من قبل السلالة الموحدية، فإن الفن الاندلسي قد طور المواضيع الشائعة بشكل ملحوظ. وتغطي الزخارف النباتية المعروفة والشائعة والاشكال الهندسية (خاصة الانشوطة) والكتابية،المساحات الملساء وكذلك الحزام السفلي (باطن العقد) لبعض الاقواس، يجب أن نشير مع ذلك في هذه الفترة إلى تطور المقرنصات، وهي أحدى الخصائص الفريدة للفن الاسلامي، هذا وأن المقرنصات التي تغطي القباب والاقواس ماهي ألا تشكيل هندسي بسيط يقوم على أساس الاشكال المقعرة والتي تحدث أثراً مرضيا في النفس بسبب ألوانها الكثيرة وتشكيلاتها البارزة في الاحجار الكلسية.

الفن النصري

يعتبر قصر الحمراء المبني فوق هضبة التقليد الاستثنائي للفن الاندلسي لدى الحديث عن مسجد قرطبة، فلائل من الباحثين يستطيعون ان يكتموا اعجابهم. وهذا نفسه هو ما يحصل لدى الحديث عن قصر الحمراء، اذ يصعب الا بكيل الانسان له بالمديح، ان الصورة التي تركها لنا الرومانسيون في رسوماتهم وأوصافهم العاطفية، تساهم بقوة في اضفاء جو من الحنين على هذه التحفة الفنية دون ان يكون في ذلك ما يضيرها.

ربما كان اول ماعلينا ان نبرزه هو ندرة التأثير الذي احدثه عصر الموحدين في تلك المملكة المنعزلة والمكتفية ذاتياً، وبأستثناء الاسلوب الخلافي الذي اصبح يعتبر وكأنه الفن الاندلسي وبالتالي التقليد الشكلي الخاص بأهل مملكة غرناطة (القادمين من

الاماكن التي انتقلت سيادتها الى ايدي المسيحيين) فأن الفن النصري لم تكن له علاقة لامع الامبراطوريات الافريقية ولا مع جيرانه من الممالك المسيحية بطبيعة الحال. وهكذا بدأ بتشكل تيار جمالي فحواه اعادة متأخرة لصهر الاذواق الشرقية التي كان الامويين قد اتوا بها معهم.

لذلك من العبث ان نبحث عن التجديد، لا في البنية العامة لقصر الحمراء ولا في زخارفه ان الابهاء (البهو) والواحات ووضع السور والابراج المكعبة واستعمال الطبيعه نفسها كعنصر تكويني، هي نفسها التي تكلمنا عنها لدى اشارتنا الى الخصائص العامة للقصور الاندلسية، هذا وان مايمكن اعتباره فريدا من نوعه تماماً هو الكمال الذي امكن التوصل اليه والمعونة القيمه التي الطبيعة المحيطة والتي يلمح الانسان من خلالها عن بعد جبال سبيرا نيفادا (جبال الثلج) والمنظر المتناسق لحي البيازين على الهضبة المقابلة.

فيما يتعلق بالمواضيع الزخرفية، علينا ان نلح على طابعها المحافظ، ان الزخارف الصغيرة والملونة بألوان كثيرة غير متناسق تتوزع على كل مسطحات هندسية معمارية ذات مواد فقيرة، لاتحاول ابدا كشف اسرارها، في كثير من الحالات، تكون الاقواس لمجرد الزينة،وللوهلة الاولى يصعب تمييز العناصر التي لا غنى علنها لكي يظل البناء قائما والعناصر التي تعتبر مجرد نزوة شكلية، وفي كثير من الحالات ايضا لاتكون الاقواس المتابعة سوى شاشة مخصصة لخلق عدد من التصاميم الضوئية بحيث يتم الانتقال من المساحات الداخلية الى المساحات الخارجية بشكل تدريجي. ان زائر قصر الحمراء الموجود في احد الاروقة التي تسبق الباحات ربما لايكون متأكدا من انه واقف داخل المبنى او خارجه، من جهه اخرى فان كثرةالمقرنصات وبياض المصيص المشغول باشكال نباتية والتي تمثا تصاميم نسيجية ناتئة تساهم كذلك في بعث الحيرة.

اذا كانت الافاريز الخزفية لقواعد الاعمدة، تستحق الزيارة في حد ذاتها فان الكتابات التي تشكل الافاريز ليست اقل اهمية ومن المناسب أن نبرز بين الاولى تلك تسمى بالزخارف المفرغة المشبكة والتي تشير اشارة مستترة إلى الجوهر الالهي من خلال تركيباتها المعقدة والمكونة من خط منكسر حتى النهاية: نفس الخط يشكل المركز المتناسق

لعدة تكوينات تشع وتتكرر بأستمرار. وعلى مايبدو فأن تلك البسط الخزفية كانت نتيجة لحسابات رياضية معقدة كلف بعملها علماء البلاط، هذا وأن الافاريز الكتابية تمثل نفس الطبيعة المجردة لحتوائها على أيات قرآنية وقصائد عن القصر نفسه، وفي كلتي الحالتين، تعطي الكتابات معنى محددا للفراغ المحيط، لقد قيل بأن التحريم الاسلامي لصور الاشخاص أو الحيوانات قد تم تطبيقه في الاندلس بشكل صارم أو أستثنائي. لذلك ليس من المستغرب عدم وجود طبيعية متقنة بالدرجة التي حظيت بها المشاهد المجردة.

مازال هنالك عنصر هام جدا لتلك الهندسة المعمارية المترفة: فن تنظيم الحدائق، لاشك أن أفضل طريقة لتقدير الوحدة الكاملة بين ما تم بناؤه بين الطبيعة هو أن يجلس الانسان على الارض في أي من الابهاء الغرناطية ويتأمل المنظر الذي يبدو من خلال النوافذ . وكنوع من الاستدراك، فأن الهندسة المعمارية نفسها (وربما كان هذا أكثر وضوحا في جنة العريف) تكون في كثير من الاحيان كمجرد خلفية لمشهد النوافير والحواجز.

ومع ذلك، فليس كل الفن النصري هو فن قصور ملكية: يستطيع المسافر أن يتأكد خلال زيارته لغرناطة بان الترف لم يكن بعيدا أبدا عن العمران بصورة عامة وأن الحس العملي كان قائما فعلا في كثير من الابنية العامة.

الطرقات

على طول أي من الطرق التي ينوي المسافر أتباعها، يجد لدى مروره فيها عديدا من العلامات التي تدل على الماضي الاسلامي، أنه يستطيع أن يرى أي أرتفاع من الارض أثرا قائما، محفوظا بشكل جيد أو سيء، لكنه يمكن أن يوحي بتاريخ طويل من الحروب التي كانت تنشب بين المسلمين والمسيحين، تاريخ المجموعات القصصية الشعبية الاسبانية ملي بالمغامرات التي تعتمد كخلفية إحدى القلاع المتعددة التي تملأ تلك الأمكنة على مدار ثمانية قرون، إن تعداد القلاع الاسلامية أمر يطول شرحه علاوة على كونه في غاية الصعوبة نظرا لأن تلك القلاع كانت في كثير من الحالات، الاأسلامية أولا ثم

اصبحت مسيحية دون أن نعرف بالضبط إلى إي الفريقين تنتمي تلك الابراج أو الاسوار القائمة.

الامر نفسه يحصل بالنسبة للمدن: في كثير منها كان تخطيط الشوارع المتعرجة والمنحدرة، يمكن أن يعتبر كتراث للمدن كما كانت عليه. حيث يوجد مسجد. قام المتيحيون ببناء كنيسة وحيث توجد حمامات، تحول للاسف الى أرض جرداء، وعلى كل حال، فأن مرور الزمن كفيل بأن يمحو الاثار وأن يترك لنا فقط التي وجب أحترامها نظرا لضخامتها أو لمكانها المنعزل.

وبطبيعة الحال، فأن الآثار التي أستمرت أكثر من غيرها داخل الحدود الاسلامية كان عددها كبيرا جدا، هذا ويتجمع في المدن الاندلسية – وعلى رأسها قرطبة وغرناطة وأشبيلية – أهم هذه الاثار، تأتي بعدها مدينتا طليطلة وسرقسطة. في هذه المدن حدثت ظاهرة هامة. وهي أن الملوك المسيحيون أنفسهم هم الذين كانوا يحرصون على المحافظة عليها بعد فتحها مباشرة، إذ أنهم كانوا يعملون تماما تفوق الجانب المغلوب في كل مايتعلق بالفنون وكانو يريدون تحويل هذه الثقصور والمساجد الى أنصبه تذكارية للحروب التي خاضوها، ولقد هدد الفونسو العاشر العالم بقطع رأس أي جندي من جنوده يجرؤء على نزع قالب واحد من الطوب الذي بنيت به مئذنة جيرالدا.

الاندلس غوطة نهر الوادي الكبير

يخترق هذا الطريق الاول محافظات جيان وقرطبة وأشبيلية بأنعطاف صغير واقع في محافظة ولبة ويصل حتى لبلة، الفن الخلافي والموحدي ممثل هنا أحسن تمثيل إذ أن كلا من قرطبة وأشبيلية تعرض أمام أنظار المسافرين أثرين من أفضل الاثار الاندلسية في الوقت الذي تسمح فيه بتصور مشاهد الحياة اليومية داخل الاطر القديمة للمدن الاسبانية – المسلمة.

مازالت توجد في محافظة جيان قائمة كبيرة من القلاع التي تذكر المسافر بأنه يجتاز منطقةكان التنازع حولها عنيفا في فترة الاسترداد. ونظرا لأنها كانت ممرا أجباريا لحو

مراكز السلطة فإنها قد تحولت الى حدود هامة ومحروسة حراسة جيدة. هذا ومازالت تقوم في قرى كاثورلا وتوريبيروخيل وأيشاتوراف وكاميبودي أريناس الاسلامية التي سيسكنها فيما بعد المقاتلون القشتاليون، ولقد تمت المحافظة على هذه القلاع بشكل أكثر أو أقل جودة.

مع ذلك فأننا نقترح على المسافرين الذين ليس لديهم وقت طويل أو الذين يفضلون مشاهدة المباني المدنية على المباني العسكرية، أن يبدأوا سفرتهم في أوبيدا ثم يتابعون سيرهم عبر الطريق العام ن- 322 ون -4.

إن أبيدا، نظرا لأنها كانت بعد أستردادها، مدينة مسيحية هامة، تحافظ على عدد صغير فقط من مبانيها العربية. مع ذلك فأنه قد تبقيت فيها بعض الابراج من قلعة أسلامية وطابع العصر الوسيط في شوارعها.

المدينة المجاورة لها وهي بابيثا تحافظ على برجها الغريب المسمى برج الياتارس. من هنا، تفصل مسافة 40كم المسافر عن مدينة بايلن حيث يكون من المناسب الانعطاف نحو جيان وبأتجاه معاكس، نحو حمامات بانيوس دي لاأنثينا، تحتفظ جيان بحمامات علي التي يعود تاريخها الى القرن الحادي عشر والذي تعتبر تابعة للفن الخلافي. في حمامات أنثينا ترتفع قلعة هامة ومحفوظة بشكل جيد يعود تاريخها الى القرن العاشر وتعتبر أحدى القلاع الاكثر تمثيلا للهندسة امعمارية الدفاعية في عصر الخلافة.

من هذه النقطة. تستمر الرحلة عبر الطريق ن- 4، حتى قرطبة.

من المؤكد أن أول ما يجب أن يفعله المسافر لدى وصوله الى قرطبة هو أن يتجول حول المسجد الجامع معيرا أنتباهه لما يشاهده ومحاولا تصور ماكانت عليه تلك العاصمة في القرن العاشر والتي كانت تقارن بالقسطنطينية. في شوارعها الضيقة كالممرات، كانت توجد 80000ورشة ومحلا تجاريا تجعل الوسط التجاري في قرطبة نوعا من السوق العالمي.

أما المسجد فإنه يرتفع فوق أرض معينة مستطيلة 180×130 مترا علما بأن الجدران الجنوبية (القبلة) والشمالية (الباحة) هي أصغر بقليل، هذا وتعطي الدعامات القوية

الشرفات الطرفية للبناء طابعا من القوة يكاد يكون عسريا ومشابها بطبيعة الحال لطابع المساجد الكبرى في المشرق، أن الابواب الاسلامية والابواب التي أضافها المسيحيون فيما بعد عندما حولوا المسجد الى كاتدرائية، تتابع عبر الجدار المحيط، هذا ويعتبر الباب المسمى حاليا ((سان أشتبان)) والموجود في الطرف الغربي، أقدم الابواب. وعند هذا الباب يقوم برج الاجراس الذي يحتل نفس المكان الذي كانت تحتله المئذنة.

تحتل الباحة مساحة مستطيلة بها صفوف من أشجار البرتقال التي تعتبر أمتدادا لمحاور كل مسطحات المسجد الجامع. أننا ننبه المسافر ألى أنه في العصر الوسيط. لم تكن الفراغات الموصلة الى مسطحات الجامع مسدودة مما كان يسمح بدخول النور الى داخل الجامع عبر هذا الجانب الشمالي علاوة على ذلك فإنه من المفترض أن الباحة في ذلك الزمن كانت تقوم بدور مشابه للدور الذي تقوم به حاليا من حيث أرتياد المتفرغين من العمل لها وكذلك المسافرين من بقاع أسلامية أخرى.

يجب أن تتم زيارة المسجد حسب مراحل بنائه التي أمتدت خلال عصري الامارة والخلافة.لقد أمر عبد الرحمن ببنائه في عام 780م وأنتهى ي عهد المنصور في أواخر القرن العاشر. ان أقدم أجزائه هو الذي يحتوي على صحون الجامع الاحد عشر الموازية للجدار الايمن عندما يكون وجه الانسان متجها نحو القبلة. هذا ولايحول المعبد المسيحي القائم في وسط المسجد الجامع دون تقدير أثر الاقواس التي تحدد بوضوح معالم الفن الخلافي. وفي الصحن الرئيبسي – الذي هو أعرضها – تتركز أجمل الاعمدة وتيجانها، تلك التي أخذت من الاطلال الرومانية المتأخرة مما يفسر كذلك واقع كونها مختلفة عن بعضها البعض.

بعد ثلاث عشر مجموعة من الاقواس، يبدأ الجزء الذي يعود تاريخه الىأمارة عبد الرحمن الثاني الذي أمتدت أعمال بنائه بين عام 833م و848م، يحتل هذا الجزء مجموعات الاقواس الثمانية التالية. من هذه النقطة، يتوغل الزائر بين أروع أجزاء المسجد التي بنيت في عهد الخليفة الحكم الثاني خلال النصف الثاني من القرن العاشر، إم كثرة

الاقواس المفصصه والمتقاطعة يشكل هنا منظرا أكثر تشابكا تساهم في تحديد القباب التي أشرنا ليها لدى الحديث عن الفن الخلافي.

أما الكوة الملحقة بالكاتدرائية والتي تحولت الى مصلى (فيليا فيثيوسا) (كانت هذه المساحة المربعة تعرف بأسم الكوة الرائعة) فأنها تعتبر أحد أفضا تكوينات تلك الفترة) وترتفع قبل المحراب، ثلاثة مسطحات مرتفعة ومغطاة بقبة.

أخيرا يبدو المحراب وكأنه تجويف صغير مضلع، تغطي واجهته زخرفة من بياض المصيص والفسيفساء. ننصح الزائر بأن يحتفظ في ذاكرته بالخطوط العامة لهذه التكوينات أذ أنها يمكن أن تكون ظاهرة بارزة للذوق الخلافي، أما قوس الحدوة شبه المغلق تحدده – طنف النافذة – تحتوي بدورها على توريقات رقيقة (أشكال نباتية). توجد فوق هذا الجزء من البناء سلسلة من الاقواس المفصصة نستطيع ان نرى فيها التناوب بين الاحجار المكونة للعقد والتي وضعت في مكانها منذ الحقبة الاولى للامارة وبين خاصية اللون المزدوج الاحمر والابيض. أما الفسيفساء التي تغطي والتي تستعمل كزخرفة للقبة التي تعلو الفراغ السابق فهي من أعمال الفنانين البيزنطيين.

يبدو المحراب بعد هذا التقديم وكأنه مكان بسيط، نرى فوقه أفريزا من الاقواس الصغيرة وقبة بشكل صدفة (الصدفة البحرية التي تلازم الرسوم الوثنية لفينوس) تزين هذا المكان الصغير الذي ينحصر إنتباه المصلين فيه.

وعلى الرغم من أن المسجد كان قد بلغ من البهاء مالامثيل له، فقد أراد المنصور أن يقوم بتوسيعه، حتما بهدف مجاراة السلالة المالكة، ولقد كان قرب المسجد من الوادي الكبير يسمح بتوسيعه في ذلك الاتجاه، لكن أضافة ثمانية أجزاء جديدة في الاتجاه الشرقي، أسفر عن فقدان مركزية المحور الاساسي للمبنى.

ويستطيع الزائر أن يتأكد من وجود جدار خارجي في السابق بين الاعمدة الضخمة التي تفصل بين اللاجزاء الجديدة والقديمة. ولقد تم نقب الجدار واقتصرت الانشاءات على الزيادة في طول المسجد بحيث تتوافق مجموعات الاقواس الجديدة مع

الاجـزاء الـتي كانـت موجـودة قبـل ذلـك، أن الحفـر الموجـود في تيجـان الاعمـدة وفي الدعامات هو أكثر خشونة مما هو عليه في الاجزاء السابقة.

بقية الاثار الاسلامية في قوطبة تتركز عمليا حول المسجد. فالجسر الـذي يعـبر نهـر الوادي الكبير والموجود الى جانب المسجد. لايحتفظ غلا بقليل مـن أصـله الامـوي، قريبـا جدا من هذا المكان، يمكن للزائر التاكد من وجود طواحين قمح، كانت تـستفيد في عـصر الخلافة من قوة التيار المائي بواسطة نواعير كبيرة، وفي الجانـب الاخـر مـن الجـسر توجـد قلعة الحرة التي سيقوم بتوسيعها فيما بعد أنريكي الرابع ملك قشتالة.

تجاه المسجد ينتصب قصر الاسقفية المبني فوق القصر المهجـور بعـد أنتقـال الـبلاط الاموي الى مدينة الزهراء، أما للجدران الشرقية والـشمالية فهـي الوحيـدة الـتي حافظـت على بنيتها القديمة.

في أطراف الحي القديم من المدينة. يوجـد بـاب اشبيلية (القـرن العاشـر) وبـاب المدور الذي يستخدم كمنفذ الى الحي اليهودي، وأذا عدنا الى متاهـات الـشوارع الموجـودة في مركـز قرطبـة التـاريخي، لجـد حمامـا محفوظـا بـشكل جيـد، بـين شـارعي كوميـدياس وثيسبدس، ولقد كان هناك حمام أخر ـ تحفظ بقاياه اليوم في متحف الاثار في قرطبة.

لم يبق علينا سوى أن نزور سلسلة المـأذن الـتي ظلـت قائمـة حتـى بعـد الاسـترداد المسيحي وذلك لأنه تم تحويلها الى أبـراج للكنـائس. بـرج سـان خـوان – مـن عهـد عبـد الرحمن الثاني أي القرن التاسع – وبرج سانتا كلارا (من نهاية القرن العاشر) وأخيرا بـرج كنيسة سانتياغو الواقعة خارج منطقة المسجد في شارع إغوستين مورينو.

على بعد خمسة كيلو مترات من قرطبة وفي سفح الجبل الـذي كـان يـسمى قـديما ((جبل العروس) تقوم أطلال مدينة الزهراء وهي مدينـة ملكيـة أصـبحت شـبه أسـطورة إسلامية، بدأ بنؤها في عام 936م بأمر من عبـد الـرحمن الثالـث. وأنتهـى في عـام 976م في عهد الحكم الثاني. أن الهندسة المعمارية الرائعة لمبانيها وغنى زخارفها قد جعلـت ذكرهـا. رغم تهديدها المبكر. راسخ في أذهان الاسبان المسلمين الـذاكرين لـبعض مقـاطع القـرآن التي تصف مدنا اسطورية. ولقد تم تخريبها في عام 1010 م على أيدي البرابرة الذين قـاموا

بثورة ةضعت نهاية لأيام الخلافة الاموية، أعتبارا من تلك العملية الاولى للنهب، تحولت مدينة الزهراء الى مقلع للحجارة بهدف إقامة أنشاءات أخرى.

كانت مدينة الزهراء تقوم على ثلاثة مستويات متدرجة فوق مساحة مستطيلة طولها 1500متلرا وعرضها 750مترا، وكان يحيط بها سور مزدوج من كل الجهات، وفي أقر منطقة ألى المدخل الخحالي للمدينة – وهو أكثرها أرتفاعا – كانت تقوم القصور التي بنيت على الطريقة الشرقية بشكل باحات متتابعة محاطة بالصالات الفخمة أن أحدى هذه الصالات التي أطلق عليها مكتشفها ((الصالة الغنية) قد برهنت خلال الحفريات عن الزخرفة الرائعة التي كانت هناك.

الجزء المتوسط كان مشغولا بحدائقمتنوعة من بينها حديقة للحيوانات تحتوي على انواع غريبة،اما الجزء السفلي فكانت تقوم فيه المدينة الاساسية: المسجد والحمامات والمساكن والورش.هذه لاخيرة

كانت معزولة تماما عن القصر الملكي، وقد احتوت مدينة الزهراء على دار للطراز واخرى للسكة اي مصنع النسيج واخر لضرب النقود.

ان المسافر الذي يتابع سيره في الطريق الذي قاده الى هذا المكان، يصل بعد 32كيلو متراً الى بلدة المدور ديل ريو حيث توجد قلعة من القرن الثامن قام عبد الرحمن الثالث بتحصينها وعلى مسافة 54كم، توجد مدينة استيجة حيث يستطيع المسافر ان يشاهد اطلال السور المحمدي، وعلى بعد 54كم، اخرى في اتجاه اشبيلية، توجد قرمونة التي تحتفظ كذلك بسور اسلامي، اما قلعة غواديرا الواقعة على مسافة 26كم من قرمونة فقد حفظت بشك جيد جدا.

قريبا جدا من هذا المكان (على مسافة 33كم من قرمونة و14كم من قلعة غواديرا) توجد اشبيلية، عاصمة الاندلس في عصر الموحدين.

ان تتبع آثار اشبيلية المسلمةليس سهلا كما هو الحال في قرطبة، على الرغم من ان المباني تتركز هنا كذلك في مساحة ضيقة، مئذنة الجيرالدا وفناءاشجار البرتقال هما الشيء الوحيد المتبقي من المسجد الكبير الذي تم بناءه في القرن الثاني عشر من قبل صناع قدموا

من مدينتي مراكش وفاس، ومن المناسب ان يتوقف الزاءر امام الباب الشرقي، الوحيد المتبقي من الابنية المسيحية، اما الجيرالدا فلن نذكر عنها سوى معلومات قليله اذ ان الزائر يعرف خصائص الفن الموحدي، لقد بدأ بناؤها في عام 1195م ثم بعد ذلك بثلاث سنوات ولتخليد ذكرى معركة الارك، توجت بالتفاحات الاربع الذهبية والتي كان يمكن رؤيتها من مسافة مسيرة يوم كامل حسب ما هو مذكور في التاريخ العام لالفونسو العاشر العالم، وقد سقطت هذه الكرات الاربع في عام 1355بسبب زلزال ترك آثاره في ذلك البرج، هذا وان شكله الحالي ودوارة الهواء التي اكسبته تسميته الحالية، يعودان الى بناءه المجدد في منتصف القرن السادس عشر.

الى جانب الكاتدرائية تقوم مجموعة من المباني الملكية التي تعود الى عهود مختلفة.

المبنى الذي يسمى (القصر القديم) وباحة الجص والنواة الرابعة لبهو السفراء، تتشكل نموذجاً رائعاً للهندسة المعمارية في هذه الفترة التي مازلنا نجد فيها بالتأكيد وحتى الان أثر الفن الاسلامي.

ما زال علينا ان نشاهد اثراً هاما جداً من الاثار الموجودة وهو برج الذهب الواقع على ضفة نهر الوادي الكبير والذي يعتبر برجاً خارجياً ملحقاً بالاسوار المرابطية التي كانت تحيط بالمدينة على طول ستة كيلو مترات، وعل مايبدو فان تسميته راجعة الى كونه كان مكسوا بالخزف المشهور الذي كان يصنع في الاندلس ويولد انعكاساً معدنياً، لم يبق من مجموع البناء سوى الجزء الواقع بين لامكارينا وباب قرطبة والقطاع الذي كان يحمي القصر.

اذا خرج المسافر من اشبيلية في اتجاه ولبة، يجد في سانلوكار لامايور، انعطافاً نحو اليسار يقوده الى بولويوس دي لا ميتاثون، على بعد خمسة كيلو مترات وفي قرية كواتروهابيتان، توجد مئذنة موحدية نشاهد فيها الاقواس التوأمية التي اقتبست من الجيرالدا، واذا عدنا الى الطريق الوطني العام في نفس الاتجاه، نصل بعد مسافة 35كيلو متر فياليا ديل الكور في محافظة ولبة، تحتل كنيسة سان بارتولومي مكان صومعة موحدية قديمة يعود تاريخها الى القرن الثاني عشر.

بعد ذلك بقليل وعلى بعد 20 كيلو متر ينتهي هذا الطريق الاندلسي، واخيراً نشاهد في ليلة وهي عاصمة لمملكة صغيرة قديمة، احد الاثار القليلة المتبقية من عصر المرابطين وهو سور قديم.

مملكة غرناطة وساحل قادش

يجتاز هذا الطريق المنطقة الاندلسية المجاورة للبحر الابيض المتوسط، من المرية الى طريف، يجد المسافر آثارا رائعة للفن النصر وأخرى تعود الى عصر الطوائف والموحدين، لن يكون من الضروري ان نشير الى أهمية المرحلة الغرناطية التي تستحق زيارة متمهلة، علاوة على ذلك فان المسافر يجتاز بعض المناطق والقرى التي توجد فيها آثار عربية هامة بصورة خاصة، المرية التي كانت في عهد عبد الرحمن الثالث ميناء هام، لم تحافظ الا على القليل من ماضيها المسلم بسبب الزلازل المتعاقبة التي اجتاحت هذه المدينة وان قصبتها التي تشرف على حركة ذهاب واياب السفن، تعود الى عصر الطوائف (القرن الحادي عشر) أما اثار المسجد الجامع البدائي التي وجدت في كنيسة سان خوان فهي هامة جداً وتشتمل على المحراب وعلى القطاع القبلي، وعلى الرغم من ان المسجد يعود الى القرن العاشر، فان زخرفته تنتمي ا الى بناء موحدي أشيد في الفترة الاولى من هذه المرحلة اي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر.

يصل المسافر من المرية عبر الطريق ن- 324 في اتجاه غرناطة، يصل الى وادي اس الواقعة على مسافة 100كيلو متر، توجد في هذه المدينة قصبة محفوظة بشكل جيد تعود اسوارها الخارجية الى عصر الخلافة، وعلى بعد 59 كيلو متر توجد غرناطة.

يجب أن تبدأ زيارة غرناطة بجولة في (السبيكة) وهي الهضبة التي يقوم عليها قصر الحمراء والسور الذي تطل علية جنة العريف، يكون الدخول من باب ينتمي اسلوبه الى فن عصر النهضة – باب الزمان – الذي يؤدي بدوره الى طريق صاعد تقوم على جانبيه أشجار الجوز والدرداء، وبعد نزهة قصيرة يصل المسافر الى بسيط تجتمع فيه نافورة من عصر النهضة والمدخل الحقيقي الى قصر الحمراء – باب العدل – الذي كان يسمى سابقاً

– باب الشريعة – وهو مدخل مميز يعود تاريخ بناءه الى عام 1348م اما الفراغ الداخلي المكشوف فقد كان مناسباً جداً للدفاع عن المداخل الى القصر.

سرعان ما يجد المسافر نفسه في الفناء المركزي الكبير الذي يجتمع فيه اقدم نواة للبناء – وهي القصبة – وأحدث بناء وهو قصر كارلوس الخامس، تبدأ جولتنا بالقصبة التي تطل أبراجها على منظر رائع، اعتبارا من هذا المكان، فأن الطابع العسكري الصلب يترك المجال للهندسة المعمارية الخفيفة التي تتسم بها المنطقة السكنية.

النواة الاقرب تعرف باسم القصر الملكي القديم، الى جانب الساحة التي تعرف باسم (ماتسشوكا) تذكيرا بالمهندس المعماري للامبراطور كارلوس الخامس، يوجد مسجد صغير وصالة مستطيلة جميلة – المقصورة – ربما استعملها ملوك بني نصر لاجراء المقابلات التي كان يعرض فيها اتباعهم الشكاوى والاقتراحات، بعد ذلك توجد ساحة ونوع من المشرف. القاعة الذهبية، تشكل كلها احدى اجمل مجموعات البناء في الحمراء اما السور الجنوبي الذي يحميه جناح ضخم ومتميز فيمكن اعتباره (واجهة داخلية) يؤدي الى النواتين الرئيسيتين وهما بهو قمارش وساحة الاسود.

قبل ان نتابع تجوالنا، يجدر بنا ان نذكر المسافر بالاسلوب التركيبي المتميز الذي كان يتبعه البناؤون العرب والقائم على تجميع الصالات حول الباحة، هذه المراكز التي تشكل وحدة سكنية كاملة كانت تسمى في قصر الحمراء (قاعات) وهكذا فان بهو قمارش يشتمل على الباحة الشهيرة التي يوجد في وسطها بركة محاطة بصفين من الرياحين والصالات والاروقة والممرات التي تمتد حولها، جهتها الشمالية مسدودة بواسطة ممر يسبق بدوره قاعة البركة، وقبل دخول، نلفت انتباه المسافر الى الحنيات الصغيرة الموجودة في الجدران والتي كانت تستخدم لوضع جزء من الماء فيها أو مبخرة يحرق فيها العنبر والعطور الاخرى، واذا كانت هذه الحنيات تفصح بما فيه الكفاية عن ترف الحياة اليومية في هذه القاعات او الابهاء، فان أهميتها تكمن كذلك في بنيتها الخاصة، اذ انها هي نفسها المستعملة في اطراف الممرات وفي المشارف وفي اي مكان اخر يحتوي على مكان مسقوف، يؤدي الممر الى فناء البركة الذي يشتق اسمه بالتأكيد من السقيفة الخشبية الرائعة التي يمكن أن توحي

لنى بهيكل سفينة مقلوبة بعد لك يجد المسافرنفسه في بهو السفر وهواحد الاجزاء الأكثر سهرة في قصر الحمراء ويحتل القسم الداخلي لبرج قمارس عندما يجدالمسافرنفسه في هذا البهو ننصحه ان يتوقف امام كل من زخارفه التزينة.من جهة اخرى فأنه من الضروري في كل المباني التي انشأ ها النصربون ان يتمتع الانسان خلال وقت كاف بتأمل الروائع التي تعرضتها عليه هذه الهندسة المعمارية.وفي بهو السفراء يمكننا ان نلاحظ على الفور أهمية البيئة المحيطة لدى محاولة تحديد المكان.

أذا عاد المسافر الى القاعة الريحان (الذي تسمى كذلك قاعة البركة). فانة يجد أمامه الرواق الجنوبي الذي ينتهي بممر يبرز من خلاله الجدار المائل لقصر كارلوس الخامس المجاور له.ومهما حاولنا تقبل ادخال هذا الجدار الحجري في التركيب الدقيق لهذا الجانب من الباحة. فلا شك بأن المسافر يستطيع في هذه اللحظة فقط أن يلاحظ و جوده في المجموعة البنائية الاسلامية لقصر الحمراء.يقوم الانسان بعد ذلك الزيارة الحمامات الملكية التي تعتبر نموذج قيما لهذا النوع من الانشاء التي تسمح بالتعرف على كل مراحل الاستحمام التي يمر بها الاسبان المسلمون.هذاوربما كانت صالة الاسرة هي أبرز في تلك الحمامات.

ساحة الاسود تشكل زاوية مستقيمة مع بهو قمارش، وتعتبر هذه الساحة صورة مميزة جدا لقصر الحمراء، ان المسافر يعرف شيئاً عن صفتها الرمزيةالمتمركزة بصورة رئيسية في النافورة التي اعطته اسمه، لقد اعتبرت ساحة الاسود صورة عن الجنة، يجتازها كما هو الامر في الاوصاف القرآنية، اربعة أنهر متآتيه من جهات الارض الاربع، اما الرواقان الموجودان في الجانبين الضيقيين واللذين يتجهان نحو الوسط فأنهما يوحيان بالخيام التي كانت مساكن للبدو والتي توجد كذلك في الجنة حسب قول الرسول، هذا ولابد ان تكاليف هذه الزخارف التزيينية كانت كبيرة كذلكم من جهة اخرى فاننا نلفت انتباه الزائر الى ان ابعاد هذه هذه الساحةالرائعة ناتجة عن حسابات معقدة تجعل تصميمها متصلا بتصميم الزغارف المفرغة المشبكة التي كانت تذكر بالطبيعة الالهية.

وعلى الطرفين الصغيرين تنفتح قاعة المقرنصات وقاعة الملوك المزخرفتان بشكل رائع بينما تنتصب على الطرفين الكبيرين قاعة بني سراج وقاعة الاختين، كلاهما مغطتان بقباب رائعة من المقرنصات، تؤدي الثانية منهما مشرف الهدف الوحيد منه هو ان يكون مناسباً لتأمل المناظر الخارجية، وقد كان المنظر يشتمل في عصر بني نصر على فضاء اوسع اذ ان الحديقة التي تسبق المشرف في الوقت الحالي هي من العصر المسيحي، مقابل ذلك وفي المقام الاول، ينتصب برج (بينادرو دي لارينا) خارج مجموعة الابنية الملكية اذا اتبعنا خط الاسوار على يمين برج بينادورا، يوجد برج السيدات والبرطال، وهي مجموعة ومكونة من رواق ومشرف ومصلى صغير وبعض المساكن وبالاستمرار في نفس الاتجاه نرى ابراجاً تحمي جناح السور برج القمم، برج القنديل، برج الاسيرة، برج الاميرات وبرج الاراضي السبع.

فوق هضبة مجاورة للسبيكة، توجد جنة العريف وهي مجموعة من الهندسة المعمارية والحدائق التي صممت من اجل الاستراحة يتم الدخول اليها حالياًعبرممر طويل مظلل باشجار السرو يستطيع المسافر هنا ان نتأكد من الذوق في تنظيم الحدائق المغلقة والمنظور المنحني والفراغات المتألقة التي ميزت كل مباني بني نصر، من جهة اخرى، ربما كان النباتات والخضرة والوجود الدائم للمياه هو خير ممثل لهذه المجموعة التي تشبه عناصرها في كل شيء عناصر قصر الحمراء.

قبل النزول الى مدينة غرناطة، ننصح المسافر بأن يزور دبرسان فرانشيسكو القديم والذي اندرجت بقاياه في البناء الذي تحتله الاستراحة السياحية.

لم يعد بعد ذلك نقترح جولة في المراكز الثلاثة التي توجد داخل المدينة والتي تحافظ على اكبر عدد من ذكريات بني نصر (حي البيازين) ضواحي الكاتدرائية والقطاع الموجود بين باب البيرة وباب فج اللزة، النزهة الاولى بعد المجيء من السبيكة، يجب ان تكون في حي البيازين الذي يكون من المناسب الاتجاه اليه عن لاطريق صعود طريق الدارو، عدا عن ان النزهة تجري في المكان الذي يتمتع بأكبر سمعة رومانتيكية في غرناطة فانه يمكن اعتباره تكملة ممتازة لزيارة الحمراء نظرا لنه يمكننا من هذا المكان رؤية جاب

من اجمل جوانبه هذا ويوجد هناك حمام من القرن الحادي عشر يعرف باسم (بانبويولو) محفوظ بشكل جيد وكذلك جانب من قوس على شكل حدوى يعود الى نفس القرن وكان دعامة لجسر، كلاهما يستحقان الزيارة، اعتبارا من هذا المكان ننصح بنزهة متمهلة في شوارع حي البيازين، الذي يعتبر افضل نموذج عن العمران الاسباني – المسلم.

ان وجود اشجار السرو والنخيل التي ترتفع فوق الاسطحة وبقاء عدد من المساكن الموريسيكية في شارع الفرن الذهبي وطرق فكتوريا وسابيث الصاعدة كلها شواهد رائعة عن ماضيها الاسلامي.

في الشوارع المجاورة للكاتدرائية (التي تحتل كما هو الحال في امكنة كثيرة اخرى، نفس المكان الذي كان يقوم فيه المسجد الجامع)، يجد المسافر نماذج رائعة من الهندسة المعمارية المدنية للنصريين، بالدرجة الاولى هناك فناء الفحم الذي كان نزلا قديما محفوظا حتى الان بشكل ممتاز، وبالقرب منه في الجانب الاخر من شارع الملكيين الكاثوليكيين – الذي كان احد الشوارع الهامة للمدينة – توجد بقايا المدرسة المبنية في عام 1349م، لقد ضم منبرها الى المجمع الديواني الذي حل محل الجامعه الاسلامية.

بالقرب من ساحة سانتو دومينغو، يوجد منزل خيرونس وهو قصر مسيحي يحتفظ في داخله بقاعة نصرية جميلة، وفي الطرف الاخر من الساحة يرتفع مبنى سانتو دومينغو الملكي وهو قصر اسلامي الحق ببناء اخر.

لكي نتعرف على المركز الثالث لاثار العصر الوسيط، ننصح المسافر ان يتجه من الميدان الجديد (الذي ينتهي اليه طريق الدارو) عبر شارع البيرة وحتى الباب المسمى بنفس الاسم، هذا الشارع هو محور اخر من محاور السير للمدينة القديمة، الابواب واجزاء السور ليست هي الاثار الوحيدة المتبقية في هذا الجزء من المدينة: دار الحرة اوبيت الملكة هو قصر صغير من اواخر القرن الخامس عشر، كانت تعيش فيه والدة الملك أبي عبد الله الصغير اصبح الان جزء من دير سانتا ايسابيل لاريال.

أخيرا، تبقى علينا خارج هيكل المدينة صومعة سان سياسيان – التي تحتل مصلى اسلاميا – وقصر شنيل الذي يعود تاريخه الى منتصف القرن الرابع عشر.

من غرناطة يتمكن المسافر من زيارة بعض قلاع مملكة بني نصر الموجودة في بينيار وفي موكلين (على بعد 25و22 كيلو متر بالتتالي) وكذلك بابا من ابواب قصبة لوشة (55 كيلو متر) المسافة من لوشة الى انتيكيرا هي 44كيلو متر فقط، وهي مرحلة اخرى من مراحل السفر. في هذا الاتجاه وعلى مسافة كيلو متر من لوشة يبدأ طريق محلي يقودنا الى اثناخار في محافظة قرطبة، وفيها قلعة نصرية كذلك.

مع ذلك ننصح المسافر ان يقوم بعملية التفاف وان يأخذ من غرناطة الطريق ن-323في اتجاه الساحل، بالقرب من لاالخارون يجد المسافر الطريق الذي يجتاز البشارة وهي منطقة، كل قرية فيها يمكن ان تكون نموذجاً للعمران الاسباني – المسلم في الريف، لدى الوصول الى الساحل، من المناسب ان يأخذ المسافر الطريق ن – 340 في انحاء مالقة سرعان ما يصل الى سالوبرينيا والمنكب حيث يجد اكثر من دلالة على التأثير الاسلامي، في الاولى منهما يوجد قصر عربي، عندما تصل الى محافظة مالقة، يجتاز الطريق الحدود الجنوبية لمنطقة اخرى ذات طابع موريسكي وهي الشرقية، هذا ويتوغل الطريق المحلي الذي يبدأ في لا كالينا، في الوديان حتى يصل الى ارشيت وسالاريسالتين توجد فيهما مئذنتان نصريتان تعودان الى القرن الرابع عشر.

لدى الوصول الى الشاطىء من جديد، من المناسب زيارة بلش – مالقة والتوغل في اقدم اجزائها، مازالت توجد فوق الهضبة المشرفة على المدينة، بعض البقايا لأهم القصور التي كانت تقوم بالدفاع عن غرناطة بني نصر.

على بعد 31كم، توجد مدينة مالقة التي كانت تحميها في العصر الوسيط قلعتان محفوظتان بشل جيد، يعود تاريخ القصبة الى القرن الحادي عشر، علماً بأنه قد تمت تقويتها وتوسيعها في عصر مملكة غرناطة وهي الفترة التي بنيت فيها كذلك قلعة جبل الفنار التي تتصل بالقصبة بواسطة جزء من الاسوار المتوازية يحتفظ فيها ببعض الاثار النصرية من القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

من مالقة ننصح بزيارة انتيكيرا والورافي داخل المنطقة، في أنتيكيرا يوجد برج أوميناخي الذي هو جزء من القصبة القديمة المعروفة باسم (ساعة بابا بيلوتاس) لدى

العودة الى الساحل، من المناسب ان يمرالمسافر بألورا وهي قرية موريسيكية توجد مقبرتها داخل قلعة اسلامية قديمة.

في ماربيا، مازالت تقوم أسوارها من العصر الوسيط، وعلى بعد 10كيلو مترات في سان بيدرودي القنطرة، يبدأ الطريق الموصل الى روندا حيث يستطيعالمسافر ان يعجب بباب المكبر (من القرن الثالث عشر والى جانب الطريق الموصل) وبالحمام العربي المحفوظ بشكل جيد وبمئذنة سان سباستيان، لم يتبق من المسجد الجامع الذي كان يقوم الذي محل كنيسة القديسة ماريا سوى قوس حدوة مشغول بشكل دقيق لابد انه كان يحدد مكان المحراب.

يوصل الطريق المحلي 339 الى زهرة (على مسافة 37كيلومتر) حيث تقوم قلعة نصرية واذا اخذنا فيما بعد الطريق ن- 342 وانعطفنا الى اليمين. نصل الى اليفيرا وهي قلعة اخرى حديثة تشرف على منظر رائع.

من هنا يكون من المناسب ان نمر بقرى قادش البيضاء والتي نشاهد في شوارعها الماضي الاسلامي بوضوح، اما مدينة أركش دي لا فرونتيرا فهي بدون شك من افضل النماذج عن مدن العصر الوسيط ذات التقاليد الاسلامية ولو ان قصرها القديم لايحافظ الاعلى أساساته القديمة تحت كنيسة القديس بطرس الحالية. الشوارع الضيقة والممرات التي تخللها الاروقة والزوايا والمنعطفات، تشكل مثلا عمرانياً يشير بوضوح الى كونها مدينة اندلسية قديمة، هذا ويسهل الذهاب من اركش الى شذونة حيث مازالت توجد الاسوار والابواب وبقايا القصر الذي كانت مهمته الدفاع عن تلك المدينة.

يمكن ان نوصي بطريق اخر هو الطريق المحلي 341 والنزول حتى الساحل، مرورا بقرى ذات جاذبية كبيرة مثل خيمينا وكاستليار دي فرونتيرا، وعندما يصبح المسافر على الشاطىء. يكون امامه مرحلتان لانهاء هذا الطريق: جبل طارق وطريف، اما برج قلعة الحرة في جبل طارق وقصر طريف الذي بني في عصر الخلافة فانهما يستحقان الزيارة اصلاَ.

المحافظات الأندلسية الشرقية

أن الاراضي الشاسعة التي تم أستردادها من المسلمين، ستتجمع في أتحاد ممالك تحت التاج الارغوني بعد أن عرفت، خلال القرون الاربعة التي كانت تنتمي فيها اللى الاندلس، حضارة أوجدت مدنا زاهرة وتحصينات منعزلة، من ضمن المدن التي علمنا بوجودها، لم يتبق اليوم كمثال على ذلك سوى الجعفرية في سرقسطة، أما القلاع فقد أستمرت قائمة ولو أنها أنتقلت الى أيد أخرى، سيكون أمام المسافر برنامج زيارات مكثف نسبيا وموزع بشكل غير مساو، فكلما أتجهنا لحو الجنوب لجد أنفسنا أمام مزيد من الاثار، في بيئة أفضل وفي مجال ملئ بالدلالات الشرقية.

كاتلونيا

يحتفظ القطاع الشمالي من كاتلونيا بالقليل من جدا من العصر الاسلامي، أن القطع المحفوظة في متحفي خيرونا وبرشلونة هي الشاهد الوحيد على عصرنا الاندلسي الوسيط، أذ أنها كانت بعيدة جدا عن مراكز السلطة وقريبة من الحدود الكارولنجية، أما محافظتا لاردة وتاراغونا فهما اغنى بالاثار العربية، في تاراغونا قوس خلافي هام من عهد عبد الرحمن الناصر، إندرج في كاتدرائيتها، طرطوشة الموجودة على حدود أراضي بلنسية، تحتفظ ببقايا قصبة لم تجر دراستها بشكل كاف.

هذا ومن الصعب أن نعرف كيف كانت قلعة ثودا القائمة في القسم المرتفع من المدينة والتي جرى أصلاحها بعد الاسترداد المسيحي وأخيرا، فأن بالاغير تحتفظ بأهم أثر وهو القصبة المشرفة على رابية محاطة بسور فيه 27 برجا دفاعيا، وقد وجد في داخلها بعض القطع العائدة الى النصف الثاني من القرن الحادي عشر.

أراغون

تتكون الجولة في أراغون من أربع مراحل فقط تشتمل على عدد هام من الاثار، من وشقة الى بني رزين، مرورا بسرقسطة وقلعة أيوب، يجد المسافر قلعتين رائعتين وقصرا – الجعفرية – من أبرز الاثار الاندلسية الباقية.

ليس في وشقة أثار طبيرة نسبيا ولكنها هامة، تتكون من بعض بقايا مسجدها الجامع، أما سرقسطة التي كانت عاصمة لأحدى ممالك الطوائف الهامة، فلا بد من زيارتها أثناء سفرنا عبر الطرقات الاندلسية، وقد أضيفت الى قصر الجعفرية العربي، أضافات هامة وتعديلات عديدة بحيث أن المرء يحتاج الى آراء علماء الاثار عندما يريد أن يحدد النواة الاصلية القديمة للقصر، لقد أمر المقتدر ببناء القصر في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وكان موقعه في ضواحي المدينة ويحيط به سور مستطيل يشتمل على 27 برجا دفاعيا مزود بالشرفات، في داخل المبنى الاسلامي توجد قاعات منتشرة على طول الضلعين القصيرين لباحة أيسابيل. أما ((قاعة الرخام)) (وهي بالتأكيدصالة العرش) والمسجد الصغير الموجود في القصر فتعتبرا أهم قطعتين في القصر كانت المجموعة تشتمل كذلك على المساحات الموجودة في الجانبين الاطولين للباحة.

لابد أن نلفت أنتباه المسافر الى تيجان الاعمدة والزخارف الموجودة في قصر الجعفرية، أما الاولى فقد درجة العناية بها تابعة للمكان المرموق الذي تحتله في المجموعة المعمارية، وهكذا فأن تيجان الاعمدة في المحراب وقاعة الرخام هي دون شك أجمل القطع، أما الزخارف فأنها تتبع الاسلوب الذي عرف في قرطبة أثناء عصر الخلافة، ونستطيع أن نعتبر أن الاقواس المتقاطعة ذات الخطوط المختلفة هي وحدها التي تعبر عن الذوق الخاص لتلك السلالة الحاكمة في سرقسطة، برج التروبادور هو كذلك جزء من البناء الاسلامي لقصر الجعفرية.

على بعد89 كيلو متر من سرقسطة وفي اتجاه مدريد، توجد قلعة ايوب،وهي مدينة اسست في سنة 716م أي مباشرة بعد وصول المسلمين الى شبه الجزيرة.ما زالت محاطة حتى ألان باسوار الذي يشتمل علىتحصينات عائدة الى عصور مختلفة.اما السور_ الذي تم بناؤه في النصف الثاني من القرن التاسع_ وما يعرف اليوم بأسم ميدان السلاح.في نهايته برجان مثمنان فيما بينهما وبرج أصغر ذو قاعدة مربعة فأنها تكون قلعة أيوب القديمة التي أشتق منها اسم المدينة بكاملها.هذه ويوجد قوس خلافي مفتوح في الجهة الشمالية للسور يعتبر ذو أهمية خاصة.

في جنوبي أرغون نجد بلدة بني رزين التي أسست كذلك في الفترة الاولى للفتح الاسلامي والتي اصبحت فيما بعد عاصمة من عواصم ممالك الطوائف قبل ان تنتقل السيادة فيها الى ايدي المرابطين السور المحيط بها والذي يشتمل على ابراج انغارادا واندادور وغيرها تم بناءه في القرن التاسع وجرى توسيعه في القرن الحادي عشر وهو محفوظ بحالة جيدة، اما التخطيط العمراني لهذه البلدة فهو نموذج ممتاز عن المدن الاندلسية، يحتفظ في متحفها بوعاء فضي للعطور ذي قيمة عالية.

طرق بلنسية

يمر هذا الطريق من الشمال الى الجنوب بمناظر يبدو فيها الاثر الموريسكي واضحاً تماماً ان الزيارات التي سنقترحها، تهدف اساسا الى زيارة القلاع نظرا لانه لم يتبق الكثير نسبياً من المراكز العمرانية الهامة مثل بلنسية.

المراحل الاولى للزيارة هي موريليا وبنييسكولا وكوليا في شمالي كاستيلون، وعلى الرغم من انه طرأت تعديلات هامة على الاسوار والابراج في العصر المسيحي.أنها ما زالت تحتفظ بطابع العصر الخلافي والعصرالمرابطي. ان قلعة الابراج الثلاثمائة القائمة في أوند وكذلك قلعة المنارة هما قلعتان اسلاميتان.أما ساغونتو التي تقع على مسافة 10 كيلومتر فأنها تحتفظ في قلعتها بعدد غير قليل من الذكريات الاندلسية ولو أنها تبدو كأنها ممتزجة بعناصر تنتمي الى عهود اخرى.أذا عدنا الى طريقنا. يكون من المناسب أن نتوقف في سيغوربي حيث توجد بعض أجزاء سور وسطي. وبعد ذلك على مسافة 10 كيلو متر في نفس الطريق. نصل ألى خير يكا التي توجد فيها كذلك بقايا سور أسلامي.

بلنسية اصبحت أقرب الينا. لم يتبق لنا من ماضيها المسلم سوى الذكرى الطيبة. كانت المدينة القديمة تقع في المكان الذي يسمى اليوم حي سيو والذي تتوسط اليوم الكاتدرائية التي حلت مكان المسجد. ومن المعروف أنه يوجد في ذلك المكان نزل ومصنع لضرب النقود عدا عدد كبير من الورش والمخازن. سيجد أثرا واضحا لذلك كله من خلال تخطيط الشوارع القديمة. وكذلك من خلال المبنى الذي ما زال قائما بالصدفة حتى

الان وهو حمامات أمير البحر الواقعة خلف القصر الذي يحمل نفس الاسم هذا و ريثما ينتهي اصلاح القصر.فاننا لايمكن أن نوصي بزيارته. في داخل وعلى مسافة 70 كيلو متر من بلنسية. توجد ركيبا التي تحتوي قلعتها الاسلامية التي بنيت في القرن العاشر على برج يؤدي الى أقدم حي في المدينة. أما البرج فقد أصبح الان مقرا لمتحف ركينا التاريخي الفني.

النصف الشمالي من محافظة بلنسية يوحي للمسافر بثلاث زيارات. في كوليرا، الواقعة على مسافة 38 كيلو متر من بلنسية يوجد حصن عربي ولو ان طابعه يوحي بكونه أراغونيا أكثر اكثر من كونه عربياً، الثيرا على مسافة 36 كيلو متر من بلنسية، تحتفظ فقط ببعض قطع من سورها العربي وفي المتحف البلدي لشاطبة، توجد قطعة هامه جدا: حوض رخامي من اصل فارسي كان موضوعا للدراسة في عدد من المداولات العلمية، لم يبقى في هذه المدينة، باستثناء التصميم العمراني للطرقات سوى بقايا قليلة من السور الذي كان يحيط بمدينة مزدهرة ومتحضرة يبلغ عدد سكانها 30000 نسمة.

تبدأ الجوله في محافظة لقنت ابتداء من دانية التي كانت عاصمة لمملكة من ممالك الطوائف امتدت سيادتها الى جزر الباليار وحتى الى جزيرة سردانية التي كانت تتمتع بسمعة كبيرة في القرنيين الحادي عشر والثاني عشر، ان بابا عربيا محفوظاً في القلعة وعددا من القطع المعروضة في المتحف هي الشاهد الوحيد على تلك الفترة المزدهرة، واتجاها من دانية نحو الجنوب. يمتد واديا ماركيسادو ولا مارينا حيث تبدو الذكريات الاندلسية واضحة في المناظر الطبيعية وفي البنية وحتى في تسمية كل من القريتين، وسنقترح على المسافر ان يتوقف فقط في تلك الاماكن التي تحتفظ ببقايا اثرية.

الى جانب كونتتابنا(على بعد65كم من دانية) وفوق كتلة صخرية. ينصب أوميناخي التابع لقلعة بنليس. يصل المسافر عبر بلد الكوي.حيث تقام تحتفالات المسلمين والمسيحين المعبرة عن ماضيها السلامي- الى نيار(على مسافة 45 كم) والتي تشرف عليها القلعة محفوظة بسكل جيد.ما زالت شوارعها تتسم بطابع شرقي قوي.

المرحلة التالية هي فليبنا على بعد 8كم من بيار و75من لقنت. من هذا المكان تكون الرحلة عبرالطريق الوطني.330 الذي توجد على جانبه بعض التحصينات.قلعة الطليعة هي فليينا هي نموذج رائع من الفن الأسلامية. وقد جرى ترميمها في المعهد المسيحي.

يمكن للمسافر أن يزور بداخله غرف المغطا بقيادة من العصر الداخلي. أما بلد ساكس الواقع على 10كم.فأنها تحافض على قلعة قائمة فوق هضبة وعرة. في ضواحي نو فلنداأخيرا. توجد قلعة مولا وهي أبرز الانشاءات في تلك المنطقة.

على بعد 27كم توجد منطقة لقنت على سفح قلعة سانتا باربارا وهي قلعة اسلامية هامة..زالت كثير من معالمها الوسيطية امام عمليات الترميم أللاحقة. من هنا تبعد مدينة التشي حوالي 23كم ويمكن للمسافر مشاهدت فيها حمامات عربية تم أكتشافها داخل ديرمرثيد. وهي الشاهد الوحيد على حضارتها الاندلسية.

مرسية

أذ كانت بساتين مرسية ما زالت تحتفض بالذكرى الحية للعصر الأسلامي.فان عدد الاثارة العائدة الى ذلك العصر لا يتناسب مع الشواهد الأدبية الذي تشير أليها منذ القرن العاشر. ألى الثالث عشر. أن بعض الشواهد المصنوعة من الجص التي يصعب تحديد تاريخها والتى وجدت في دير سانتا كلارا وقلعة مونتي أوغودو الفخمة(على بعد 5 كيلو متر من مرسية في أبجاه لقنت) هي الوحيدة التي تستحق حاليا زيارة المسافر. الى جانب القلعةالحالية. كان يوجد مسكن من العصر المرابطي.أشار علماء الأثار مرارا الى أهميته أذ أنهم أرادو أن يرو فيه سابقة مباشر لساحة الأسود في القصر الحمراء

ميورقة (الجزيرة الكبرى)

أثار الوحيدة المتبقية في بالما هي حمامات عربية ومخطط الى الشوارع الوسيطي. هذا كل ما حفظته الجزيرة من الفترة الطويلة الزاهرة التي كانت تنتمي خلالها الى الأسلام.هنا

كما هـو الامـر في بلنـسما. قـضت الثقافـة الناتجـة عـن عـصر النهـضة (بمـساعدة بعـض الفيضانات في هذه الحالة) على آثار مدينة كانت تعتبر احدى الأندلسية الهامة.

القشتالتان

نظرا لانها سرعان ما أصبحت جزأ من أسبانيا المسيحية ولأنـه لم يكـن فيهـا مراكـز عمرانية كبيرة كفيلـة بـان تـستمر عـبر الأجيـال – بأسـتثناء طليطلـة– فـأ هـذه المنطقـة الشاسعة لا تحتفظ ألا بمبان أسـلامية قليلـة. يعتـبر بعـضها ذو قيمـة كـبيرو مثـل المـصلى الموحدي في دير لاس هويلغاس وقلعة غرماج.

لابد من زيـارة طلطلـة أذأراد الانـسان معرفـة ماضـينا الاسـلامي. ودون أن ننـسا الوزن الكبير الـذي كـان للثقـافيتين الأخيريـن الوسـيطيتين– المـسيحية واليهوديـة– فمـن المؤكد أن التخطيط العمراني في طليطلة هو أندلسي محض. أن التأثير الـذي كـان للثقافيـه القرطبية في تلك السنوات الحا سمية. قدظهر أيظا في البيئتين اليهوديـة و المسيحي. لقـد تعلم أتباع هاتين الديانتين طواعية اللغة العربية بـصفتها لغـة الثقافـة.لدرجـة أن كبـار في السن كانوا يبدون.أسفهم لآن الشبيبة المسيحية قد نـسيت اللغـة اللاتينيـة وانـصبت علـى تعلم الغة الموضة. ان تنضيم المدينة والشاهدة العمرانية و الأنشاءات كنـت كلـها مطبوعـة بالطـابع الـشرقي الأمـوي. هـذا ولالجـب أن ننـسى بطائفـة المـستعمربين في طلطلـة قـد أستمرت محافـضم علـى الثقافـة الأسـلامية. سـنوات طويلـة بعـد الأسـتيرداد المـسيحية. متحدية بذالك السلطات الكنيسية التي كانت ترى فيها أمكانية خطيرى للعدوى.

مع ذالك. فأن المنشأ التي ألجزت في طلطلة أثناء الفترة الاسلامية هي أقل ممـا كـان ينتضر. لقد تم أستيرات طلطلة عام1085م وأعتبار من هذه اللحضة.نـشط الأنتـاج الفـني الأسـلامي ودخـل في المرحلـة الـتي نـسميها الفـن المـدجن. كـان المهندسـون المعمـاريون مسلمين و لكنهم ضاو يعيشون في مملكة المسيحية

لقد أعادو ترميم الأسوار والأبواب القوطيـة أثنـاء الخلافـة ولـو أننـا نـستطيع أن نعتبر حاليا كاثار أندلسية فقط. تلك المتبقية من كـامبرون وكريـستودى لا لـوث وبـصورة

خاصة باب بيساغرا القديمة الذي لم يطرأ عليه أي تغير. أما جسر قنطرة فأنه يعود الى عصر المنصور

أمبا المباني هودون شك مسجدكريستو دي لالوث. هو عبارة عن مبنى صغير ذو شكل مربع.أضيف أليه فيما بعد جزء أخر زاد من مساحته بشكل ملحوظ.المسجد مي حد ذاته يشمل فقط على الجزء المربع المغطا بقبان صغيرة على شكل نجوم. استعملت في هذا المسجد ثلاث تيجان أعمدا قوطية مما أوحى بتأثير بيزنطي نظر الان رشاقتها لم يكن تناسب مع أذواق الفن الخلاقي. أنهتى بناء هذا المسجد عام 999م

أما المسجد لاس تونرياس الذي رمم مؤخرا. فهو ينسب الى الفترى الاسلامية وكذالك الى أنتاج الدجن. على كل حال. يمكن أعتبار كنسخة خشنة لمسجد كرستو دي لالوث.أن الصلى الموجود في قاعدة الكنيسة سان لورنثو ومصلى نوسترا سنيورا دي بيلين في دير سانتا في. يمكن أن يعود تاريخنا كذالك الى الفترة الاسلامية لو ان في ذلك بعض الشك من المناسب اخيرا أن نسير الى أن طليطا لحتفظ بقايا مسجد أخر في كنيسة سان سلفاد الحالية حيث نستطيع أن نرى الاقواس الجميلة للمسجد القديم في بداية عمود مربع فوطى مشغول بدقة.

في محافظة وادي الحجاز. مازالت توجد بقايا من الهندسة المعمارية العسكرية كشاهد على أنها كانت ممر في فترة الاستيرداد. بعض اجزاء جسر على نهر هنارس(قوس نصف دازي وبداية القوس الأكبر) في وادي الحجاس وقلاع ثوريتا دي لوس كانيس واتينسه وسيغونثا وريبا دي سا نتيو ستي. هي الأثار المتبقية من العصر الخلافي لو أن القلاع المذكورة قد تم ترميمها وتوسيعها فيما بعد لأن الملوك الكاثوكيك أعتبروها نقاط أستراتيجية

على الزائر أن يزور محافضة صورية قلعة غرماج وهي حصن كبير مبني في النصف الأول من القرن العاشر.يشرف على سهل واسع كان يشكل الارض المحايدة التي تفصل المسلمين والمسيحين.

ويشكل قوس حدودة في الغابة الجمال.المدخل الرئيسي داخل الحصن. مدينة أغريدا. تحتفظ بباب من العصر الخلافي في جزء من السور الذي ما زال قائما هنا أخيرا نجد في برغش مبني أستثنائيا وهو مصلى اسونثيون الموجود في دير لاس هوبلغاس والذي يعتبر نموذج ممتاز للفن الموحدي ولو أنه من المنطقي ان ننسبه الى الفن المدجن نظرا لانه قد بناه وزخرفه فنانون طلطليون وأندلسيون في الربع الأول من القرن الثالث عشر. عندما كانت برغش قد أصبحت جزاء من الممالك المسيحية.

مع ذالك فان تصميمه الشابه لبعض الآبنية الموجودة في مراكش.يجبر على نسبته الى الفن الأندلسي لوكان ذالك لمجرد كونه ممثلا للأذواق السائدة في عصر الموحدين.

ما زالت أمامنا قطعة نادرة في فياسانا دى مينا: لوحة حجرية صغيرة محفورة على أحد وجهيها بشكل ناتىء مئذنة الجيرالد في أشبيليا.

اكستريمادورا

تنساب طرق اكستريمادورا عبر اماكن وطرقات تكشف امام سلسلة من القلاع التي لا يستهان بها، ان مملكة طائفة بطليموس والازدهار النسبي لعصر الموحدين قد ترك في هذه الاراضي آثارا قيمة تتكون بصورة اساسية من المنشآت الدفاعية.

كاثيرس

هذا الطريق الاول يتجه من جنوبي المحافظة الى شمالها وباستثناء المرحلتين الاوليتين – تروخيليو وكانيرس – فان المسافر يتوقف في اماكن منعزلة وغير معروفة.

تروخيليو مازالت تحافظ على اهم قلعة في المنطقة، واقعة فوق هضبة تشرف على المدينة،اذا اخذنا الطريق ن – 521 فان مسافة 47كم تفصل المسافر عن مدينة كاثيرس ولاشك بان أهم اثر اسلامي هنا هو السور الذي يحيط بالمدينة القديمة والذي يشتمل على عدة ابراج متأتية من العصر الاسلامي. هذا ونجد تحت قصر لاس فيليتاس الذي اصبح اليوم متحفاً. نجد بئراً تابعاً للمسكن الاندلسي الزائل.

من كاثيرس يوجد اتجاهان، في الاول يستطيع المسافر ان يأخذ الطريق ن – 630 باتجاه شلمنقة. على بعد 40كم، توجد مدينة بورتيثويلو على(يسار الطريق وبعد انطاف قصير) التي تشرف عليها كذلك قرية عربية، الاتجاه الثاني هو في اتباع الطريق المؤدي الى القنطرة التي توجد في ضواحيها قلعة القنيطر، قريباًجدا من الجسر الروماني الشهير، في كلتي الحالتين، يجتاز المسافر الطريق نفسه ولكن في اتجاه معاكس، المرحل التالية بعد بورتينويلو هي غاليستيو – التي تحتفظ بسورها الاسلامي – والتي تصل اليها اذا أخذنا الطريق المحلي 526 وبانعطاف الى اليمين قبل الوصول الى فوريا بقليل، المسافة الاجمالية هي 55كيلومتر. يكون من المناسب ان تعود من هذا المكان الى الطريق 526، وان نمر بفوريا وان نتابع الطريق حتى التقاطع المقبل لنتجه بعد ذلك الى اليمين في الطريق المحلي 513 بعد ان يقطع المسافر 12كم، نصل الى سانتيبانييت التي تحتفظ باحدى القلاع التي كانت مهمتها الدفاع عن سلسلة جبال غانا، واذا عدنا الى الوراء واخذنا الاتجاه المؤدي الى فلفردي ديل فرستو، فاننا سرعان مانصل الى قلعة الخاص. طول هذه المرحلة الاخيرة هو 45كم.

بطليوس

هنا ايضاً، نجد ان كل الاثار المتبقية هي عسكريّة تقريباً، وباستثناء مدينة بطليوس نفسها عاصمة احدى ممالك الطوائف الهامة فانه يوجد في بعض القرى عدد من القلاع التي تتفاوت درجة المحافظة عليها.

في بطليوس، يمكن للمسافر ان يتعرف على التأثيرات الاندلسية من خلال اقدم جزء من السور وباب الدخول اليه وبعض مباني القلعة والمدينة القديمة، اما برج اسبانتابيروس ذو الشكل المثمن والمشابه للبرج الذهبي في اشبيلية فهو ايضاًأثر يعود الى عصر الموحدين.

اذا خرجنا عبر الطريق الوطني ن- 5 باتجاه ماردة نصل الى لوبون على مسافة 28كم بعد ان تزور قلعتها، يكون من المناسب ان نتابع طريقنا الى المندر اليخو ونتجه في

طريق اشبيلية، بعد 27كم، والى اليسار، يبدأ الطريق المؤدي الى الانخي وهي المرحلة التالية لطريق القلاع، بالعودة الى نفس الطريق من المناسب الوصول الى حدود مقاطعة اكستر يمادرو، قبل ان يعبر المسافر ميناء لاس ماريسماس الجبلي، يجد الى يساره مونتيمولين، طول هذه المرحلة الاخيرة هم 130 كيلومتر.

فيما بعد وعبر الطريق 413 يوجد التقاطع مع ن-432، اذا اخذنا يمين الطريق، نصل الى انواغا بعد ان تكون قد قطعنا ما مجموعة 60كم.

مازتات امامنا قلعتان في الطرف الشرقي للمحافظة. اسهل طريق من بطليموس، سنساب عبر ن-5 حتى سان بيدرو دي ماردة وعبر ن-430 حتى سد غارثيا سولا على سفح سلسلة جبال ثيخارا بعد عبور السد يقودنا طريق محلي الى تالاروبياس على مسافة 190كم من العاصمة، من هنا وعبر طرق محلية تمر بين سد اوريليانا وسد ثوخار، يصل المسافر الى بنكيريثينا وهي المرحلة الاخيرة لهذه الجولة واقعة بين كاستويرا وهيليتشال على بعد أكثر من 100كم من هيرا ديل دوكي.

المدفعية في غرناطة الإسلامية

المدفعيـــة في غرنـاطـــــة الاسلامية[1]

قامـت حـضارات الإنـسان الأولى في الأراضـي الواقعـة حـول حـوض البحـر المتوسط الأبيض واستمرت الحياة في هـذه الأراضـي، وصـار البحـر الأبـيض المتوسـط بمثابة قلب وصلة وصـل بـين الأراضـي المحيطـة بمياهـه، ونظـرا لخطـورة هـذا البحـر تصارعت دول التاريخ للسيطرة عليه وللتحكم بالملاحة فيـه، وطمحـت الإمبراطوريـات وكبار القادة نحو بناء قواعد إستراتيجية تتحكم ببعض شواطئه أو ممراته، ونظـرا لتعـدد الجزر داخل هذا البحر حدث صراع تاريخي مستمر في سبيل السيطرة على هذه الجزر.

وعلى شواطئ البحر المتوسط قامت أعظم الحـضارات وتأسـست أهـم الـديانات خاصة السماوية منها، ومن هذه الشواطئ انتشرت في بقاع الأرض قاطبة.

ونظرا للأهمية القصوى لهذا البحـر نلاحـظ إن معظـم الإمبراطوريـات الـتي قامت في التاريخ وضع كبار قادتهـا في حـسبانهم إسـتراتيجية خاصـة يمكـن تـسميتها "إستراتيجية متوسطية" وهذا ما نراه واضحا في إعمـال لاسـكندر المقـدوني، وفي جـذور إعمال الصراع بين قرطـاج وروما، وفي هجـرات الـشعوب الجرمانيـة للقـرنيين الرابـع والخامس م، وبعد هذا في القرن السابع للميلاد إثناء الصراع لـساساني البيزنطـي، فعنـدما احتل الـساسانيون سـوريا وأجـزاء مـن آسـية الـصغرى قـام هرقـل ابـن حـاكم طنجـة البيزنطي برحلة بحرية في المتوسط، تمكن خلالهـا مـن الاسـتيلاء علـى مقاليـد الـسلطة في القسطنطينية ومن ثـم أبحـر علـى رأس حملـة بحريـة وقـام بعمليـة إنـزال فطعـن القـوات الساسانية في جنبها واجبرهـا علـى الانـسحاب مـن آسـية الـصغرى ومـن الـشام، ثـم طاردها حتى التحكم بها في معركة نينـوى سـنة 627 م. فهزمهـا هزيمـة سـاحقة، وتقابـل سنة 627م السنة الخامسة للهجرة، وقد كان المـسلمون بقيـادة نبـيهم صـلى الله عليـه

---

(1) ينظر مقالة محمد المنوني عن المدفعية في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد العدد 11، 12 (مدريد 1963-1964) او دراسة الدكتور سهيل زكار، المدفعية في اوئل القرن السابع عشرالميلادي.

وسلم يرقبون هذا الصراع الدولي الدائر حوله، ونتلمس صدى ذلك في سورة الروم، ولقد تعلم العرب دروس من هذا الصراع,

واستفادوا منها عظيم الفائدة في إعدادهم لخططهم القاضية بفتح العالم.

وكما هو معلوم كانت حدود شبه الجزيرة العربية مرتبطة بكل من الأراضي لبيزنطة في الشام والأراضي التابعة للإمبراطورية الساسانية في العراق، وعندما وضعت خطط الفتوح اخذ شأن البحر المتوسط بالاعتبار، وحيث إن لهذا البحر منفذين رئيسيين، واحد عند طنجة وأخر عن القسطنطينية، فقد استهدفت هذه الخطة الوصول إلى هذين المنفذين ومن ثم تملكها.

ومنها نفه الأسباب التي حدت بالخليفة أبي بكر الصديق إلى إرسال ثلاثة جيوش لفتح الشام وواحدة فقط لفتح العراق والأراضي الساسانية بلا حدود بحرية بينما أراضي الشام لها شواطئ طويلة على المتوسط ولها أراضي داخلية تصلها بالعراق وارمنية ثم أراضي إمبراطورية الخرز، ولهذا نجد جيوش الشام: واحد منها يتولى أمر قلب سورية وهو جيش شرحبيل بن حسنة، وتولي كل جيش من الآخرين مهمة على شاطئ المتوسط انطلاقا من فلسطين، فجيش زيد بن آبي سفيان كانت مهمته شمالية، وهو الذي يستولي في مستقبل الأيام غزو القسطنطينية، وجيش عمر بن العاص عهد إليه باحتلال شوطي فلسطين ثم الاتجاه إلى مصر وهو الجيش الذي استولى في المستقبل احتلال شمال افريقية ثم الأندلس.

إن هذه الإستراتيجية الواضحة تعلل لنا أسباب إخفاق هرقل في الدفاع عن سورية وعدم إقدامه على عملية إنزال بحرية كما صنع من قبل الساسانيين، وهي تفسر لنا أسباب إقامة العرب الفاتحين لرباطات كثيرة على شواطئ المتوسط ثم شروعهم المبكر في بناء الأساطيل، وفي أيام عثمان بن عفان الخليفة الراشدي الثالث، سنة 27 هـ [646 م] صار لدى العرب أساطيل خاصة احتلوا بها قبرص وآخذو يعدون العدة لغزو القسطنطينية. وعندما نعود إلى أخبار الفتوح الأولى، وبعد احتلال الشام، وسقوط الإمبراطورية الساسانية نجد إن الخليفة الراشدي الثاني - عمر بن الخطاب - جاء

سنة 17 هـ [638 م] إلى الشام وعقد مؤتمرا في الجابية [منطقة حوران السورية على مقربة من بلدة نوى] ضم كبار القادة، وفي هذا المؤتمر ادخل الفاروق تعديلات جوهرية على خطط الفتوح الأولى فقام بإلغاء جيش شرحبيل بن حسنة، وقسم جبهة العراق إلى جبهتين عهد بقيادة الشرقية منها إلى البصرة وعهد بما وراء الجزيرة - أعالي بلاد الرافدين(Mesopotamia) – إلى الكوفة التي كان لتوه قد اصدر أمر تأسيسها وبضم عناصر جيش شرحبيل، وربما سواهم، إليها، وبهذا الشكل صار لدى العرب أربع جبهات لفتح العالم والسيطرة على آسية وأوربا وإفريقيا.

وكما هو معروف إن وضع الخطط الإستراتيجية أمر والنجاح وتطبيقها أمر أخر، فلقد نفذت جيوش البصرة إلى داخل الصين والهند، وسعت جيوش الكوفة إلى خرق أراضي دولة الخرز فلم تصب نجاحات كبيرة، واختلت مصر ثم أراضي شمال إفريقيا وحوصرت القسطنطينية للمرة الأولى أيام معاوية بن أبي سفيان.

وبعد معاوية توقفت أعمال الفتوحات بسبب المشاكل الداخلية، وفي أيام الوليد بن عبد الملك تم استئناف هذه الإعمال، فتم فيما تم السيطرة عليه منفذ المتوسط الغربي من جانبيه وتوفي الوليد فقام أخوه سليمان وخليفته من بعده بإعداد حملة كبيرة استهدفت احتلال القسطنطينية.

وكان مصير هذه الحملة العربية الثانية شبيها بمصير الحملة الأولى حيث تمكن البيزنطيون من تحطيم الجزء الأكبر من الأساطيل العربية باعتمادهم على الأسلحة النارية التي عرفت باسم النار الإغريقية، وهي مواد محرقة قوامها الإسفلت والنفط وبعض الاصماغ السريعة الاحتراق مع عناصر أخرى، كان مهندس من أصل سوري قد قام باختراعها.

وأدرك العرب أهمية الأسلحة النارية فأولها عناية كبيرة، لم تمض فترات طويلة حتى صار في جيوشهم فرق متخصصة بالأسلحة النارية، كما إن معارفه بالوقاية من النيران قد تعمقت، وقاموا بتطوير أنواع الأسلحة النارية المعروفة وأبدعوا أنواع جديدة تعتمد على مواد جديدة،ويستدل من بعض النصوص التاريخية إن العرب عرفوا منذ

أواخر القرن العاشر للميلاد البارود واستخدموه في أسلحة تقذف باليد أو بوسائل أخرى، وكان من جملة وسائل القذف المنجنيق وأحيانا أنواع من الاسطوانات المعدنية، وفي غالب الأحيان استخدمت هذه الاسطوانات من قبل المدافعين في الموانئ البحرية أو وضعت على ظهور بعض السفن.

وفي إخبار تاريخ الحروب الصليبية نلاحظ استخدامات واسعة للأسلحة النارية، وكانت الحروب الصليبية كما هو معلوم من بعض الجوانب جهدا أوروبيا غربيا لفك الحصار الذي قام اثر نجاح حركة الفتوحات الكبرى،وحوادث الحروب الصليبية كان لها مسرح رئيسي في المشرق وآخر في الأندلس، وكان مسرح الأندلس أقدم من المسرح الشرقي قد استمر حتى ما بعد سقوط الأندلس، وهو لربما لم ينقطع لأنه متمثلا بالاستعمار بكافة إشكاله.

وقام الأندلسيون، خاصة في دولة غرناطة، بتطوير الأسلحة النارية واعتمدوا بشكل متنام على البارود، ويعتقد أنهم أبدعوا أول أنواع المدافع في التاريخ، هذا وهناك في التاريخ بعض المخطوطات العربية، (قسم منها محفوظ في دير الاسكوريال، قرب مدريد) التي تفيد إن عرب الأندلس وعرب المغرب استخدموا بعض الأنواع الأولى من المدافع منذ أوائل القرن الثالث عشر للميلاد.

ونسوق هنا مثالا شاهدا ذكر ابن خلدون في تاريخه العبر (7\388) لدى حديثه عن السلطان المريني – آبي يوسف، وحصة لمدينة سلجل ماسة (في المملكة المغربية في إقليم تافلات أو الراشدية) على طرف الصحراء في سنة 672هـ \ 1273 م، قال ابن خلدون "ونصبو عليها اثار الحصار من المجانيق والعرادات، وهند أم النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة إمام النار الموقدة في البارود، بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة باريه."

وعن الأندلسيين والمغاربة أخذت أوربا وسواها معارف استخدام المدفع والبارود وقامت بتطوير ذلك، ويذكر هنا إن الأسبان اعتمدوا على المدفعية في حروب الاسترداد، كما خرق أسوار القسطنطينية واحتلالها بفضل استخدام المدفعية، وسقط الأندلس،

وقامت دول أوربا وعلى رأسها كل من اسبانية والبرتغال بنشاط بحري استعماري كبير أدى إلى اكتشاف أميركا والإكثار من الملاحة في المحيطات، وجهدت كل من اسبانيا والبرتغال للسيطرة على طرفي ممر جبل طارق، وهكذا وقعت معارك كثيرة بين عرب المغرب وأساطيل وجيوش هاتين الدولتين، ولعل أهمها معركة وادي المخازن (1578 م) في المغرب ثم مايعرف باسم حرب الثلاثمائة سنة مع الجزائر، وفي هذه المعارك كانت المدفعية هي السلاح الرئيسي والحاسم، ولقد ابدي عرب الشمال الإفريقي تفوق واضح في استخدام هذا السلاح، حتى ليحيل للمرء إن دولة المغرب كانت بعد معركة وادي المغازن مهيأ للدخول في مرحلة تاريخية جديدة نظيرة لما عرف باسم عصر النهضة في أوربا، إنما تبديد طاقات هذه المملكة في إفريقيا السوداء وسيطرة زوايا الصوفية وتحكمها بعقول الجماهير إلى قلة المعادن والأخشاب، مع أسباب أخرى أدى إلى ضياع هذه الفرصة، وغرق البلاد في حمأة انحطاط العصور الوسطى.

إن ظهور سلاح المدفعية واستخدامات البارود قد ترافق في أوربا مع بداية انتهاء عصر جيوش العصور الوسطى التي اعتمدت على قواعد النظام الإقطاعي، وقيام جيوش جديدة في تسليحها وفي أنظمتها، فلقد صارت صناعة الحرب في أوربا الغربية حرفة وعلما، ولم تعد هواية، وكان من نتائج ذلك تصنيف بعض الكتب في الحرب والنظام مع التدريب على الأسلحة، وأولت هذه الكتب سلاح المدفعية والبارود عناية خاصة، لكن يبدو إن ما من واحد من هذه الكتب تم وقفه كليا على موضوع المدافع والبارود.

وهذا الأمر الذي لم يحصل في أوربا تم انجازه في المغرب العربي من قبل احد الأندلسيين واسمه (إبراهيم بن احمد غانم بن محمد بن زكريا)، فقد أقدم إبراهيم هذا على تصنيف كتاب كبير منح اسم (العزة والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع).

ولقد تحدث إبراهيم في مطلع كتابه عن حياته ثم بين حوافزه إلى تأليفه فذكر انه ولد في قرية من قرى غرناطة بعد سقوط مملكتها العربية، ولقد جاءت ولادته ربما في

الربع الأخير من القرن الخامس عشر، ذلك انه لم يذكر تاريخها بالتجديد وذلك لجأنا إلى تقدير ذلك استنتاجا.

وذكر انه ظل يعيش في منطقة غرناطة حتى اصدر ملك اسبانيا أوامره بنفي المسلمين الأندلسيين من غرناطة ومملكتها وتوزيعهم على الأراضي الاسبانية، ويبدو إن هذا قد حدث سنة 1583م، ونتيجة لهذه الأوامر توجه برفقة أسرته إلى مدينة اشبيلية. وفي اشبيلية استهوته حياة البحار والملاحة، ويحدثنا عن هذا بقوله: (وتولعت بالسفر في البحر المحيط، فسافرت فيه مرارا، ثم سافرت في السفن الكبار المسماة بالغليونية بالأعجمية التي تأتي بالفضة من الهنود المغربية البعيدة (أي من أميركا) فكانت تمشي عمارة كما هي من عادتهم، وفيها جيش ورجال عارفون بالات الحرب البارودية، وكانوا يجتمعون مع أكابر القوم للكلام في تلك الصناعة وتارة يأتوا بالكتب المؤلفة في ذلك الفن وهي كثيرة، لان العارفين بالعلم، المباشرين بالعمل وغيرهم لما رأوا إن ملوكهم يعظمون أهل ذلك الفن ومن يؤلف فيه فتنوا به).

واهتم إثناء خدمته في الأسطول الاسباني بالبارود والمدافع اهتماما كبيرا جدا، وصار يلازم رجال المدفعية من الاختصاصيين بالبارود ويحفظ بعض المعلومات وخلاصة المناقشات التي كانت تدورامامه، وبعد هذا كان يقوم بتطبيق ماحصله على الأسلحة ذاتها، ويستخلص من حديثه انه كان يجري بعض التعديلات ويقوم بتطوير معارفه اعتمادا على إبداعه عبقريته الذاتية.

وإثناء خدمته في الأسطول الاسباني كانت محاكم التفتيش الاسبانية، نشطة جدا، تلاحق الأندلسيين وتنكل بهم، لذلك كان مؤلف كتابنا يجهد في سبيل إخفاء هويته، ويبدوا انه لم يفلح تماما، فألقى القبض عليه وأودع السجن، وضل فيه فترة لا ندري قدرها، إنما ليست قصيرة بالتأكيد، وكانت له بعض العلاقات الخاصة مع واحد من كبار رجالات الاسبان، وقد افادته هذه العلاقات بحيث اطلق سراحه، فغادر اشبيليه وعاد لحو منطقة غرناطة، يريد الجواز من الاندلس الى الشمال الافريقي، ومرة ثانية

اصطدم بالسلطات الاسبانيه ومنع من تغادر البلاد، وجهد في سبيل الخروج، فلم يفلح، فلجأ إلى الرشوة، فحقق النجاح.

وهكذا غادر المناطق لأندلسية، وحط به الركاب أولا في مدينة تونس، فوجد فيه إعداد كبيرة من الأندلسيين(من الأصحاب والأحباب) ووصل خبره فورا إلى داي تونس فعينه في جيشه وقدمه (على مائتين رجل من الأندلس) وأعطاه خمسمائة قطعة نقدية و (مائتين مكحلة ومائتين سكينة، وغير ذلك مما يحتاج اله من سفر البحر وركبنا بأصحابنا في سفائنا).

ولا يذكر عدد السفن الذي غدت تحت إمرته، ولا نوع المهمة التي كلف بها، ولا اسم المنطقة التي توجه إليها إنما يبدو انه عهد إليه بأمر اعتراض سفن الأسطول الاسباني لتدميرها واغتنام حمولتها، ويذكرانه عاد بعد ستة أشهر إلى تونس(بغنيمة قليلة) وكان مصابة (بجروح من حرب الأعداء.

ويبدو إن جراحه كانت شديدة إلى حد انه اشرف على الهلاك، ومكث في تونس حتى شفي من جراحه، ولاشك إن مكوثه كان لمدة طويلة، إنما بعد ما بريء من جراحه ركب البحر ثانية.

وقد بين لنا هذه المرة مهمته ومنطقة نشاطه بقوله (وسافرنا فيه – البحر – في طلب الكفار وأموالهم، ونحن بقرب مدينة مالقا وهي على حاشية هذا البحر الصغير)، وجاء توجهه لمهمته هذه في الصيف حولي شهر آب، وقر مالقا التقا بعمارة اسبانية فيها إحدى عشرة سفينة حربية وكان البحر ساكنا،(ولا شيء من الريح، ووقع الحرب الشديد،ومات من الجانبين خلق كثير، ودام الطراد الكبير حتى لم يبقى من إلا القليل، وأسرونا وصح إن من الكفار أعداءنا مات في تلك اليوم أكثر من ستمائة رجل، كان بينهم أكثر من عشرين من أكابرهم، وأسرونا وانا مثقل بالجراح).

وظل في الأسر مدة سبع سنوات لا ندري أين أمضاها ولا كيف ولا نوع المحن التي تعرض لها، فكل مايذكره – وهو مصدرنا الوحيد عن حياته – انه نال حريته وعاد إلى تونس، وهنا قام الداي بتكليفه (بالقعود في حصن حلق الوادي) خارج مدينة

تونس، وكان حصنا منيعا جدا، يتولى مهام دفع السفن التي كانت ترغب بغزو تونس. ويبدو انه اعتبر ألان جنديا نظاميا من جنود داي تونس يتقاضى راتبا دوريا، وقضى في عمله الجديد ما لا يقل عن أربع عشرة سنة فيها ترسخت معارفه العسكرية واخذ يعقد المقارنات بين أوضاع الجيوش الأوربية خاصة الاسبانية منها والجيوش في بلدان شمال إفريقيا فساءه تدني مستويات المعارف الحربية والتدريبات والتمسك بالأنظمة، وألمه جهل جنود الداي وسواهم بفنون المدفعية وأسلحة البارود فقرر إيجاد علاج لكل ذلك ولنسمعه يتحدث لنا بقوله " وفيها (قلعة حلق الوادي) كملت معرفة آلات المدافع بالاشتغال بيده فيها وبالقراءة في كتب الفن الأعجمية، ولما رأت الطائفة المسماة بالمدافعين المرتبين لا معرفة لهم بالعمل، وإنهم لا يعمرون ولا يرون لما يقتضيه العمـــــل عزمت على تصنيف هذا الكتاب لان كل مدفع له قيمة والرمي به من يكسره ويفنيه فـــي الرمية الأولى أو الثانية والموكل عليه الذي يعمره ويرميه قريبا من الهلاك، فحملني على تصنيفه النصح له ولمن وكل عليه).

نسأل الله إن يقبل النية، أنها ابلغ من العمل، وان ييسر لي من يعربه بالعربية من الكلام الاسبانيول، وهو الكلام العجمي المتصرف ببلاد الأندلس، ولا قصدت به نفعا دنيويا بل الإخلاص لله تعالى بترجمته لنكتب منه نسخا ونبعثه إن شاء الله لبعض المواضع من بلاد المسلمين، ونذكر فيه وما يحصل النفع من وجوه، وللمدافعين القائمين بما وجب عليهم من الحقوق فيما تصدروا إليه وتكفلوا به من خدمة المسلمين، ويحصل لهم الأجر عند الله سبحانه بتفريج المسلمين بإتقان إعمالهم وتخويف أعدائهم الكافرين.

ولم يكن مؤلفنا يحسن القراءة والكتابة بغير الاسبانية، وقد بين سبب ذلك وأعاده إلى نشأته بين الأسبان ومطاردة هؤلاء لذوي الأصل الأندلسي، ويبدو من سياق حديثه انه شرع بتصنيف كتابه هذا سنة 1631 م، أي منذ خمسين وثلاثمائة سنة خلت، وهو حين صنف كتابه هذا كان أول من عرفه عالميا يصنف كتابه يقفه كله للحديث على المدافع والبارود، ويبدو انه أطلق على كتابه هذا اسم" المنافع بالمدافع "وقد قام مترجم الكتاب فيما بعد بتعديل هذا العنوان بموافقته وجعله " العز والرفعة والمنافع للمجاهدين

في سبيل الله بالمدافع" ونحن لأندي المدة التي احتاجه المؤلـف لكتابـة مـصنفه وإنمـا يـدوان ذلك لم ستغرق منه وقتا طويلا، وبعد الجازه لعمله هذا بعدة سنوات مر بمدينة تونس احمـد بن قاسم بن احمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي، وكـان يعمـل ترجمانـا في مراكش عاصمة المغرب الأقصى. والحجري هـذا أندلـسي الأصـل هـاجر إلى المغـرب في أواخر القرن السادس عشر – ربما سنة 1599 – واستقر في مدينـة مـراكش حيـث تـولى مراسلات السلطان زيدان السعدي (ت 1627 م) الأجنبية وعمـل ترجمانـا لـه ولأولاده، وفي حوالي سنة 1636م سافر من مراكش إلى مدينة سلا – بجوار الربـاط – ومنهـا توجـه إلى الحج والزيارة، وفي طريق العودة عرج على مدينة تونس وهناك التقى بمؤلفنا احمـد بـن غانم، الذي تعرف عليه، وعرف عملها بالترجمة فطلب منه الإقدام على تعريب كتابه.

وكان الحجري إثنـاء عملـه في الـبلاط الـسعدي قـد عـرف مـدى أهميـة سـلاح المدفعية، ثم إثناء قيامه بفريضة الحج تعرف إلى صراعات الدولـة العثمانيـة وحروبهـا مـع أعدائها، ومـدى فاعليـة سـلاح الدفعيـة في هـذه الحـروب، وكـان أندلـسيا نفـسه تحـترق وتجيش بالحقد على الذين حرموه من وطنـه، لـذلك اسـتجاب وقـرر الـشروع بالترجمـة، اسمعه يقول" لما طالعت الكتاب العجمي الذي كتبه الرئيس مؤلفه بخط يده ورأيـت نيتـه الصالحة إن الكتاب يكون فيه نفع للمسلمين وعون لهم على الكفار المـشركين... عزمـت على تعريبه وتوكلت على الله فيه يسر لي الأسباب."

وعنـدما شـرع بالترجمـة أدرك صـعوباتها، خاصـة في نقـل المـصطلحات وتعريبهـا، فقـرر الإقلاع عن تنفيذ المهمة، لكن إلحاح المؤلـف ثبتـه، ثـم إن المؤلـف قـام بـشرح كـل مـصطلح مـن المصطلحات، وبعمله هذا سهل عليه المهمة، وقم تم انجاز الترجمة سنة 1048\ 1638م.

وبعد عملية التعريب نسخ من الكتاب عـدة نـسخ تم توزيعهـا في تـونس والمغـرب الأقصى وغيرها، وفي تـونس ألان نـسختان خطيتـان واحـدة حـسنة وأخـرى متوسـطة الجودة، كما يوجد في ليبيا نسخة واحدة وربمـا أكثـر، كمـا يوجـد في مـصر نـسخة في المكتبة التيمورية متوسطة الحال، ولحسن الحظ يوجـد بـين محتويـات الخزانـة العامـة في الرباط نسخة المترجم الخاصة، أي ما يمكـن إن نـسميه النـسخة إلام مـن الكتـاب، وهـي

تتألف من 260 صفحة من الحجم الكبير خطها مغربي ممتاز، مزينة بالصور الملونة، والصورة جاءت موزعة في ثنايا الكتاب لتشرح مواده وتساعده على فهمها وهذه الصور بحد ذاتها تحتاج إلى وقف دراسة مخصصة عليها تتناولها من الجوانب الفنية الجمالية البحتة ومن الجوانب الهندسية وسوها، وهذا غير ممكن تطبيقه بشكل علمي كامل إلا بالعودة إلى النسخة الخطية الأصلية،أو بالحصول على صورة مطابقة للأصل.

ولدى مطالعة نص الكتاب ندرك إن المترجم قد نجح في عمله نجاحا مثاليا، وانه كان متمكنا من الاسبانية والعربية بشكل جيد، كل ذلك رغم ما نجده في النص العربي من الأخطاء النحوية واللغوية الأخرى، فالمترجم له عذره، ذلك انه كان ابن عصره، يكتب بلغته ولأبنائه ورجالاته.

وفي الحقيقة فالكاتب في نص هذا الكتاب يجد فيه محاولة رائدة لعمليات التعريب الحديثة، وعملية جريئة وأصيلة في اعتماد المصطلحات وهي مشكلة قائمة في الوطن العربي.

بعد هذا كله لنمسك الكتاب من أوله محاولين وصفه بشكل إجمالي والتعرف إلى محتوياته جاء ترتيب الكتاب ترتيبا أندلسيا وذلك بافتتاحه بثبت فيه محتوياته، وهذه الطريقة المعتمدة الآن في أوربا والمعتبرة طريقة علمية، تعلمها الاوربييون من عرب الأندلس وعنهم نقلوها، وعقب ثبت المحتويات التي تدعى عند الأندلسيين باسم" برنامج الكتاب"

ساق المؤلف مقدمة الكتاب.

وعندما نعود إلى محتويات المكتبه الأندلسية المتأخرة منذ عصر ابن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب الغرناطي، وابن مرزوق التلمساني، نلاحظ طول المقدمة لطل كتاب وأهمية موضوعها ومحتوياتها،حتى لكأنها كتاب قائم بذاته ونواة كتاب، وهذا الأمر الذي نجد شاهده الأكبر في المقدمة ابن خلدون وكما نراه في كتاب(العزة والرفعة)، حيث حوت المقدمة حديثا معرفا بحياة المؤلف عبر مراحلها حتى تاريخ الجازه لكتابه، حيث لا نملك من المعلومات شيئا عن حياته بعد ذلك، وبالتالي لا لنعرف

سنة وفاته. وبعدما فرغ من التعريف بنفسه اخذ يتحدث عن أهمية لأسلحة النارية وتاريخ استعمالاتها وركز حديثه على البارود والمدفعية ثم بدأ بعد ذلك بسرد مواد الكتاب بابا تلو الأخر إلى النهاية، وقد قام المترجم بإضافة خاتمة للكتاب حوت حديثه عن اللقاء مع المؤلف ثم قيامه بالترجمة.

ولقد ساق المصنف مواد كتابه ضمن خمسين بابا، من المفيد سردها هنا كما جاءت بالأصل لتعطي القارئ صورة مبدئية عن هذه المواد، وإجمالية توضيح مدى أهمية هذه المواد.

الحمد لله، أما محتويات هذا الكتاب (العزة والرفعة) وفيه خمسون بابا، وما صدر المؤلف من رحلته، وما ذكر ترجمان الكتاب من الأعجمي إلى العربي في أخره من رحلته، وفضل الجهاد، وغير ذلك.

محتويات أبواب كتاب العزة والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله في المدافع

- الباب الأول: فيه وصايا وتذكيرات للمجاهدين بالات الحرب البار ودية، ومما يحتاجه ليتقن صنعه وعمله.
- الباب الثاني: في ذكر الآلات البار ودية، ومما تركب المعدنية منها، وما يضاف للنحاس من القصدير عند تفريغها وتذويبها.
- الباب الثالث: في ذكر آلات الحرب، ونتيجتها والمقصود بها، وذكر اختلافها بعضها عن بعض.
- الباب الرابع: في ذكر تثليث المدفع الطويل، وسائر المدافع من نوعه وبه يعرف ما فيه من الغلظ من معدن في قعرية الخزانة تحت البخش، وفي وسطه عند الإذنين، وعند رقبته، عند جبهته فمه، وصورته.
- الباب الخامس:في تثليث النوع الثاني من المدافع، وهي التي ترمي كورا من حديد، و وتسمى بمدافع التهديم والتهتك،لأنها مصنوعة لهدم الأسوار والحصون.
- الباب السادس:في الإذنين التي في كل مدفع من سائر المدافع من الأنواع الثلاثة، وذكر تثليث بعضها وما تختلف عن غيرها.

- الباب السابع :في كيفية السفر، الدفع الرهيف، وهو من العمل القديم، وكانوا يفرغونه بقليل المعدن ليحمل في السفر، وفيه الصورة للمدافع الثلاثة المذكورة في الباب.
- الباب الثامن: فيذكر المدافع التي تبني بكوره من حديد، ومنها الناقوصي وصورته وذكر الرهيف.
- الباب التاسع: في الوجه الخامس من اختلاف المدافع بعضها عن غيرها، وصور بعضها، وذكر ألمخزنيه وهي الخاصة في العمل.
- الباب العاشر: في ذكر المدافع من النوع الثاني وأقسامها وأسمائها، وذكر المدفع العظيم القتّال بالنظر، والمدفع الصحيح وذكر ما تختلف بالرمي وكيف تعمَر.
- الباب الحادي عشر:في السبب الموجب لكافة المدافع الباروديه لتكون على الحالة التي هي في طولها وعرضها وعملها وذكر فيها السنة التي استنبط الراهب عمل البارود، وذكر المدفع الطويل جدا، وكان يرمي قليلا حتى نشروا منه الثلث ورمى كثيرا.
- الباب الثاني عشر: في تقطيع صور المغارف من الكاغد للمدافع، وحسابها واختلافاتها بعضها عن بعض كما تختلف المدافع في إجرامها واعمالها وصوريها مختلفة، وفيه كيفية التعمير.
- الباب الثالث عشر: في ذكر الرمي بالقياس وما ينبغي للمدافع إن يعمله من العمل بالآلات، وكيف يصل إلى معرفتها، وذكر التربيع لاستخراج نقط أوساط ظهور المدافع ليأخذ القياس بالنظر عليها، وذكر الأشياء المانعة من الرمي المستقيم، وهي ثلاثة عشر مسألة.
- الباب الرابع عشر: في ذكر السرائر للمدافع وصفة عملها في طولها وعرضها وذكر أحسن خشبها وغير ذلك مما يختص بها.
- الباب الخامس عشر: فيذكر العجلات من النوع الأول وحسابها، وذكر الوجه الأشهر في ذلك.

- الباب السادس عشر: في ذكر سرائر النوع الثاني منا لمدافع وعجلاتها، وكيف تختلف من اجل الأماكن التي تكون فيها ومفارقها.
- الباب السابع عشر: في ذكركورته،الحجارة ونتيجة فعلها، وذكر مقادر كورها، وما يكون من ثقل المعدن بحساب كورته، وذكر طولها، وصورة المدفع المفروغ على ثلث ما تثقل الكور من عمارة البارود،أيضا صورة المدفع الذي يعمر بالنصف ما تثقل كورته.
- الباب الثامن عشر: في ذكر سرائر المدافع الحجارة.
- الباب التاسع عشر: في ذكر العجلات للمدافع الحجارة.
- الباب العشـــــرون: في صفة تعمير المدافع الحجارة أما بالمغارف أو بالقراطيس وذكر صفة المدكات والسلك إما بالمغارف أو بالقراطيس وذكر صفة ذلك.
- الباب الحادي والعشرون: في كيفية تعمير المدافع به بسرعة وبالتأني، وكيف يقلب المدافع في باطنها وما يتحفظ عند التعمير.
- الباب الثاني والعشرون: في اخذ القياس للرمي بالربع وعمله وتفصيله في كاغد صورته، وذكر ما يرمي من الخطوات كل مدفع على النقطة الأدنى،وهو على خط مستقيم، وما يرمي الكورة من خطوات على النقطة السادسة، وهي درجة غاية الرمي.
- الباب الثالث والعشرون: في ذكر معادن أنواع المدافع، ربما تختص بعضها عن بعض وذكر عمل كل واحد، عمل كل واحد، وبما تتفضل القلبرينة عن غيرها، وذكر صفة أجرام المدافع في طولها، وصورة الدفع المهراس، وهذا من أطول البيان، وفيه ذكر الحيلات التي كانت القدماء تستعملها مثل المنجنيق وغير ذلك.
- الباب الرابع والعشرون: في اختبار الآلات الجديدة الخارجة من التذويب، وكيفية تعمير كل واحد، وفيه ذكر التعمير القراطيس،وصورة القراطيس وذكر الرمي على الخط المستقيم وغيره، وانزل منه، وهو أطول البيان.

- الباب الخامس والعشرون: في ذكر تربيع المدفع لاستخراج نقطة الوسط في أعلى ظهر المدفع الوحدة من وراء البخش، والنقطة الثانية فوق جبهته لأخذ القياس عليها، وصورة المدفع، وصورة مسطرة بشاقولين.
- الباب السادس والعشرون:في ذكر الهواء الذي يكون لكل كوره، وذلك ما ينقص من قعر فم المدفع من قعر الكورة لئلا تحصل في الجعبة، وذكر بعض الرميات يستعرضها الأمير، ويأمر ألمدافعي بها، وفيها اثنا عشر وجها مختلفة بعضها عن بعض.
- الباب السابع والعشرون: لاستخراج كوره مصلبة،ومحصله في داخل المدفع، أو بجوزة واستفراغ عمارة مزمنة.
- الباب الثامن والعشرون:لنزع المسمار الذي يضعه العدو في بخش المدفع لتبطيله عن الرمي والتدبير عليه.
- الباب التاسع والعشرون: في كيفية تبريد المدافع من كثرة الرمي بها من غير توقف، وكيف يرفق بها ويحفظها من الكسر.
- الباب الثلاثون: في الرمي على الدرجة السادسة بالربع في فم المدفع، والآخر بالرمي على الدرجة الأولى، وهو الخط المستقيم،   وصورة المدفعين.
- الباب الواحد والثلاثون: في ذكر آلات ألمدافعي وكيفية مسطرتهم العدد، وهي من الآلات الأكيدة وبها يعرف ما تزن كل كوره، وهي من الأسرار العجيبة وصورتها.
- الباب الثاني والثلاثون: لمعرفة البعد الذي يكون بين موضعين، أو ارتفاع حصن أو جبل أو عرض واد وذكر عمل خط اوغار تحت الأرض لرفع حصن بما فيه الهواء، وصورة المسطرة لأخذ الارتفاع   أو البعد أو العرض.
- الباب الثالث والثلاثون: في معرفة البارود،وهو من ألد الأشياء للمدافعي لان به يختم في الصناعة ويقضي الغرض إذا كان جيدا.
- وجوه.الرابع والثلاثون: في كيفية عمل البارود، ويليق بالمدافعي معرفة عمله من وجوه.

- الباب الخامس والثلاثون: لاستخراج ملح البارود وذكر المواضع التي يوجد بها غير الأماكن المشهورة.
- الباب السابع والثلاثون: في معرفة ملح البارود، هل هو خالص نقي، وكيفية تخليصه.
- الباب الثامن والثلاثون: في الكورة المدبرة بالنيران المركبة من أعواد إذا عمله العدو لحرق السفن، ودفع الأعداء وهدم الأسوار.
- الباب التاسع والثلاثون: في تقييدات التراكب التي توضع في الكورة المدبرة منها ترمي باليد ومنها بالمدافع، وهي على أربعة أنواع، وفيها كوره مركبة من كوره ترمى باليد، وكل واحدة معمرة ترمي صواعق مدبرة.
- الباب الأربعون: في ذكر المواضع التي تكون فيها المدافع وتسخر وتخدم.
- الباب الواحد والأربعون: في صفة عمل السلاسل، وتسمى عند بعض قراطل ليستتر بها المدافعيون من رمي الأعداء وصورتها.
- الباب الثالث والأربعون: في ذكر القبرية بالعجم يسمى لولب،وهو حبل لترتيب المدافعي، وذكر يسمى مرتنة وصورتها.
- الباب الرابع والأربعون: في ذكر حمل المدافع في البر إذا يخدر سفر لبلاد بعيدة.
- الباب الخامس والأربعون: في عمل القناطر على الديدان لجواز الجيش والعدد وصورتها.
- الباب السادس والأربعون:فيما يحتاج المدافعي من آلات لصناعته تكون عنده موجودة.
- الباب السابع والأربعون:في شأن البارود، وذكر السبب الذي يخلق الله تعالى به التفرقع والحس القوي.
- البارود الثامن والأربعون: في ذكر ما يحتاجه المدافعي للسفر في البر والبحر وآلات البارود.

- الباب التاسع والأربعون: في ذكر عمل ملح البارود من التراب في زمننا هـذا. وذكـر تخليصه بعد العمل.
- الباب الموفى الخمسون: في ذكر أحسن الوجوه لعمل البارود في زمننا هذا.

والحمد لله على قضاء الحوائج، وعلى كل حال، وصلى الله علـى سـيدنا ومولانـا، وعلى اله وصحبه وسلم تسليما.

نصوص مختارات من الكتاب: أبواب كتاب العزة والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله في المدافع" إن صناعة الحـرب هـي مـن اشـرف الـصنائع وأعلاهـا وأحـسنها، والتي يحتاج إليها في أمور السياسة أكثـر مـن غيرهـا وهـذا القـول ثابـت بـرأي كـثير مـن العلماء والحكماء من أهل الخير والذين انتفعوا بها، بل اتفاق ملـل الـدنيا كلـها، وبـذلك علمنا أنها اعز ما يوجد فيها يكون القهر للخارجين، والجبارين، والمعتزلـة والكـافرين بمـا ينهبون منهم المسلمون ويأسرون، وهذا بين وظـاهر إن جميـع الـسلاطين لا أمـن لـه إلا بالات الحرب ولا دوام لهم في مراتبهم وأهل طـاعتهم وعـامتهم إلا بهـا، ولـيس هـذا في بني ادم فقط بل هو ظاهر في الطيور والبهائم، فيظهر في الهـواء شـر الطيـور يعـرف ويميـز عدوه، وقد يرى مثل ذلك بين الوحوش الأرضية من الحروب والـشرور مثـل ذلـك يـبين الوحوش الأرضية من الحروب والشرور مثل بني ادم، وكـل واحـد يعـرف ويميـز عـدوه، وكل واحد ينتفع بسلاحه وجنته، وآخرون يقهرون أعدائهم بـالمكر والخديعـة، ويقـصدون بذلك الظفر بالأعداء والسلامة لأنفسهم منه.

وبعـد هـذا حـاول إن يـؤرخ للأسـلحة الناريـة والبـارود، فقـدم في هـذا المطلـب معلومـات جـديرة بالدراسـة والاعتبـار والمتناقـشة، وبعـد العـرض التـاريخي لاسـتخدام الأسلحة النارية والمقذوفات في الماضي خلص إلى القول: والخالص والاسـنى والأشـهر ممـا تقـدم فهـو: بالبـارود والمـدافع وآلاتـه. ولا ينكـر نفعـه، لان رأينـا قلـيلا مـن النـاس استفتحوا به سلطنة عظيمه وأقطارا كثيرة، وانقادت لهم ملـل وأقـوام مـن الجبـابرة وكـثير من الحصون التي كانت في غاية المنع فهي الآن منفية ومهدومة بالبارود وآلاته.

1- عن اصناف الجند

ان بعض الجيوش تنقسم "إلى قسمين ' ومثالهم كالجسد: فالرماة فهو اليدان والفرسان هم الرجلان للخفة والانتقال، والرأس والأكتاف والجسد فهو التدبير للجيش لأنه تحت أمره... وقسم بعض العارفين الجيش على ثلاثة أقسام"

2- أنواع الأسلحة والقذائف البار ودية

وهنا أوضح إن "الجندي يرعى ما لزمه من العمل بمكحلته (أي البندقية) وسيفه، والفارس ايضاموجود بحصانته، وكل واحد يرعى ما أمر به ويمتثله، وإما صاحب المدافع فكلفته أعظم، لأنه موكل على مدفع واحد أو على أكثر من واحد،فالرامي تكفل بمكحلته، والفارس بحصانه والمدافعي تكفل بشيء عظيم، وركن أعظم من أركان الجيش، ولزمه إن ينظر لكثرة المال الذي ينفق في إنشاء مدفع وتذويبه، وفي إخراجه من قالبه، ثم في تبرينه وتنقيته،ويرى إن اقبل إن يتم عمله المذوب، يجوز عليه الشقاء والتعب العظيم، وكم مرة يعودها للتفريغ بسبب ما يظهر فيها من العيوب، ثم تحمل المدافع على الأرض بمشقة وتعب مسافة يوم واحد أو أيام، ولا يكون ذلك إلا بإنفاق ومال كثير وشقاء.... وإذا وكل بالمدافع من لا يعرف إلا مسألة واحدة، وهي انه يحكم ببصره إن لون المدفع المعدني (أي البرونزي) اخضر، والذي هو من حديد، فهو أكحل، (أي اسود)، ولا يفرق بين أنواعها، ولا هل هوقلبرين (يقذف كتلا معدنية) أو مدفع حجري، ولا بأي مقدار تكون عمارته من البارود، أو يقطع القياس لمغرفته – ومنهم من سماها قبشة – ولا بأي نقطة من الربع يرمي عليها اعني يأخذ القياس للرمي ' ولا يعرف يأخذ مقدار السرير ليعطيه للنجار ليعمله، ولا لغير ذلك من الأشياء التي تتعلق بالصناعة "يكون ضرره عظيما. وبعد هذا وصف حالة سلاح المدفعية في تونس العثمانية وعقد مقارنه بين وضع هذا السلاح في اسبانيا والأراضي العثمانية وتألم لتدني مستويات التدريب عند قومه وعلومها عند أعدائهم، وهنا وصف طرائق التدريب على المدفع في اسبانيا، وهذا الوصف كبير الأهمية لان مادته وثائقية نادرة.

ومن خلال حديث المؤلف عن استخدامات المدفع نلاحظ إن المدفع قد حل في بداية استخدامه محل المنجنيق، والبارود قوة قاذفة لكتل كبيرة من الحجارة أو المعادن، وليست هنا مادة مفجرة أو حارقة، فالتهديم يتم بفعل الصدمة وليس بغير ذلك.

وعلى الرغم من هذا نلاحظ نوعا من التطوير يجعل الكتله المقذوفة تقوم بوظيفة مزدوجة: تصدم وتحرق، أو تفجر في نفس الوقت.

وانتقل بعد هذا إلى الباب الثاني، وهنا بخلاف الباب السابق، نجد هذا الباب أكثر خصيصا واقل عموميات، وقد تناول أولا مسألة صنع المدافع البرونزية فذكر "إن كل عشرة أوزان نحاسية نقية يضاف إليها وزن واحد من القصدير، لكن إذا كان المدفع المنوي عمله سيعتمد فيه على قطع معدنية لمدفع قديم فهنا (لكل مائة جزء خمسة أجزاء من قصدير، واقل من ذلك يكفي."

3- **عن مهمة رجل المدفعية**

أوضح إن مهمة رجل المدفعية الأولى إصابة الأهداف وحتى يتحقق له ذلك عليه إن يفرق "بين المدافع في طولها وعرضها وغلظها، وهل هو في أجزاء تركيب معدنه على القانون أم خارجه عنه، وهل مستوي في باطنه أم هو في جانب اعرض من جانب آخر، وهل هو متين او رهيف، وهل هو صحيح في ظاهره وباطنه."

وأوضح إن أنواع المدافع اثنان وثلاثون نوعا إن العامل بسلاح المدفعية إن يتقن جميع المسائل بأخذ المقاييس وتقدير مسافات الأهداف وأنواعها، ذلك ما ترمى به الأسوار هو غير مايحتاج إليه ضد السفن أو أبواب القلاع.

وانتقل بعد هذا إلى مسألة أخرى اعتبرها هامة تتعلق بنقل المدافع فأوضح انه "ينبغي للمدافعي إن يعرف يعمل قنطرة لجواز واد، وصندلا أو قاربا ليعبر بالآلات (التي تساعد على حمل المدافع، ثم عليه قبل السفر لأي مهمة إن يكتب بيانا بجميع مايحتاج إليه" من البارود والرصاص والكور، وغير ذلك".

وختم بعد ذلك الباب بالتذكير من جديد بأهمية المدافع وذلك بقوله: "واعلم إن صناعة الحرب البارودية هي الآن أفضل من جميع الأسلحة الموجودة الآن للحروب التي هي يخاف الناس. منها أكثر من غيرها"

ولقد وقف الباب الثالث للحديث على أنواع المدافع التي ذكر في الفصل السابق بأن عددها "اثنان وثلاثون" وهنا أوضح إن الخلاف بين الأنواع أساسه طول المدفع وغلظه وان هذا يتحكم بطبيعة الوظيفة التي يمكن إن يقوم بها كل نوع، ولذلك على رجل المدفعية إن يعرف كمية البارود التي يحتاجها كالمدفع من المدافع، لأن الجهل هنا يؤدي إلى كسر المدافع وإيقاع الضرر بالصديق قبل العدو.

وانتقل بعد هذا إلى الباب الرابع ليتحدث به عما دعاه باسم عملية تثليث المدفع، وأوضح إن التثليث "يسمى بذلك لأنه يكيله في ثلاثة موضع تجريبا للمدفع الأول عند زك (وتقرأ: زج) المدفع، وهو موضع قعر الجعبة، والثاني عند أذني المدفع، والثالث في عنقه، وإذا عرف غلظ المعدن الذي يحتاجها من البارود، لئلا ينقص ولا يزيد على ذلك.

وبعد هذا الشرح تحدث بشكل فني بحت عن التثليث كل نوع من الاثنين والثلاثين نوعا من المدافع، واستخدم الآن للمرة الأولى الصور الشارحة، والمدافع التي ذكرها هنا تستخدم مقذوفات حجرية، ولذلك وقف الباب الخامس للحديث عن تثليث المدافع" التي ترمي كوره من حديد" وهي "مصنوعة لهدم الأسوار والحصون" وتسمى قنون (canon) بالمعجم".

ولقد أوضح إن كثرة استخدام هذه الأنواع تسبب سخونة السلاح، وبالتالي تعرضه لمخاطر التفتت وتجعل فاعليته قليلة، ولذلك ينبغي تبريده، ويكون ذلك (بخل أو ماء".

وحيث إن كل مدفع مهما كان نوعه لا بد وان يحمل على قاعدة مناسبة بشكل متوازن تمكن وقف مؤلفنا عند هذا الموضوع ودعا القاعدة التي تحمي المدفع (السرير) وأوضح في الباب السادس إن نقطة الارتكاز والتوازن لكل مدفع على سريره هما(أذناه) فبدونهما "يكون المدفع أثقل من جانب واحد او يميل إلى جانب دون آخر أو يقع على فمه ولا يجلس إلى وراءه".

ولتحديد مكان الإذنين لكل مدفع "يقسم المدفع على سبعة أجزاء، والابتداء للعد يكون من ورائه من جهة الخزانة، والأربعة أجزاء تكون إلى جهة الفم".

وقد جره الحديث عن الإذنين إلى عقد مقارنة بين جميع جميع المدافع في أيامه وتبيان أفضلها عند خبراء المدفعية الأوربيين، وكان هؤلاء الخبراء يفضلون المدافع الطويلة على سواها، فقام مؤلفنا العربي بمناقشة آراء هؤلاء الخبراء على ضوء تجربته الخاصة فقال:" وظهر لي أن المدفع الذي يرمي بكوره كبيرة أذا سقط له الثمن يبقى غاية في الجودة".

وكرر بعد هذا بعض المعلومات السابقة واعتذر عن عملية التكرار، وحاول تسويفها بأن التكرار يثبت المعلومات ويفيد المطالع.

وقام في الباب السابع بالحديث أولا عن تثليث نوع خفيف من المدافع دعاه باسم" الرهيف" وبين إن هذا النوع كان مفضلا في القديم خاصة من قبل رجال الأساطيل البحرية، ثم تحول ليقف طويلا عند تحديد كميات البارود اللازمة لاستخدام هذا النوع وبين كيفية ذلك، وختم الباب بتقديم صور ثلاث لثلاثة أنواع رئيسية من المدافع.

وانتقل إلى الباب الثامن ليتحدث عن نوع من المدافع يرمي مقذوفات معدنية فقد دعاه باسم" الناقوص" لان خزانته التي يوضع بها البارود على شكل ناقوس فمه المتسع إلى الأعلى" وقدر ما تمر إلى القاع تضيق الخزانة' وحيث هو موضع التعب للمدفع زادوا هناك شيئا من المعدن".

وشرع في الباب التاسع بالحديث عن نوع من المدافع دعاه باسم المخزنية (نسبة إلى مخزن الدولة أو الحكومة في المغرب) فذكر إنه إذا كان في وقت الزحام فيعمر بسرعة بسبب إن الخزانة هي ضيقة ولها حاشية في أولها في داخل الجو "الفراغ" للجعبة فيلطم طرف المغرفة فيها، ويظن المدافعي انه بلغ بها إلى موضعها فيترك هنالك البارود".

وأوضح هنا إن إبقاء خزانة البارود غير معمرة تماما يبقى كميات من الهواء في داخلها مما ينجم تحطيم المدفع "لان الهواء الذي عمر ذلك الفراغ إذا قام النار في البارود فيفر الهواء ويطلب الهروب من الذي هو وراءه، فيجد السد أمامه بالكورة... فبقوة النار وسرعتها من البارود المشعول، فلا يصبر الهواء على من هو قدامه يمنعه، فيهرس الجعبة

في الحين، وهذا سببه، وبذلك قلت وأنذرت لمن هو ملازم لهذا النوعين من المدافع وهما الناقوصي والمخزني أن لا يغفل ويقطع لها مغارفها كما ذكرنا".

وتحدث في الباب العاشر عن نوع من المدافع هائل الحجم دعاه باسم "المدفع القتال بالنظر" ووصفه بأنه اقوي المدافع وأصبرها وأفضل وأحسن ما وجد في أنواع المدافع إلى الآن،وهو نوع لا يوجد إلا القليل منه،وهو "يرمي كورة من حديد تزن مائة وخمسين رطلا " وأحيانا مائتين "ويضعونه على خشب عظيمة إذا أرادوا الرمي به،أو تحريكه من موضع إلى أخر،وتارة يجعلونه على الأرض ويرمونه به في وقت واحد، تخلى المدافع الكثيرة،ولا يخفى ما يهدم من الأسوار،لأنها تخربها وتردها أرضا دكا، وبالقليل من الرمي به يقضون غرضهم،وهذا فعله وهو خير ما ظهر في الدنيا، ولا يخفى ما ينفق في تحريكه من موضع إلى موضع،فضلا عن إنشائه وتفريغه فيه عمارته بشقاء كثير لان البارود يكون كثيرا لكل عمارة، فيحتاج أكثر من ستة مغارف، والمغارف من نحاس والعصا فيثقل مثل ذلك، فإذا دخلوا البارود، فآخرون يجمعونه إلى قعر المدفع بالمدكات، وكما إن نتيجة فعله عظيمة فكذلك شقاؤه وتصاريفه كثيرة".

إن الاستمرار في عرض أبواب الكتاب واحد تلو الأخر،سيطيل حجم هذه الدراسة ويحولها إلى كتاب قائم بذاته، لذلك سأقف عند هذا الحد التسلسل واختار بعضا من الأبواب المتبقية بحيث يمكن منها الخروج بتصور كاف لمحتويات الكتاب.

واستعرض ألان محتويات الباب الرابع عشر، ففي هذا الباب تحدث عن صناعة أسرة المدافع،فبين أولا إن أفضل أنواع الأخشاب من "النشام والبلوط والجوز" ونصح إن تقطع الأخشاب من أشجارها في شهري كانون الأول وكانون الثاني "وبعد القطع فيجعلونها في صهريج ماء بحيث لا يضرها الريح ولا الثلج ولا العقد،متكون اصبر ولا تعفن ولا تاكلها الدودة" وتصح بأن يكون طول ألواح السرير بطول المدفع مرة ونصف "ليدوم السرير ويسهل تحريك المدفع من جهة إلى أخرى "وقال بأن سماكة الألواح ينبغي إن تكون قدر قطر فم المدفع،ثم بين قدر عرض السرير وكيفية صنعه بشكل متين وأسهب في هذا المجال إسهابا كبيرا يدل على فهم هندسي رائع.

وإذا كنا قد رأينا مؤلفنا في الباب الرابع عشر مهندسا من الطراز الأمثل، بارعا في صناعة القواعد ويفقه بصناعة الأخشاب،فإننا نجده في الباب الثالث والعشرين يحسن فهم صناعة المدافع بقدر ما يعرف استخداماتها،فقد بين إن المدفع ينبغي إن يحوي من المعدن "ما يكفي ليصبر للبارود من الكسر لئلا يكون المدفع رقيقا وينكسر ولا غليظا زائدا مما يحتاج فيثقل عن التحريك" وهنا أوضح إن أفضل المعايير إن "يعطي لكل رطل

...من ميزان الكورة ستة وستين وثلاثمائة رطلا من معدن ولزيادة إيضاح أن للقلبرينة (احد أنواع المدافع) التي ترمي كوره من خمس وعشرين رطلا فيكون مدفعها إذا اتقنا لذوب صنعه من إحدى وتسعين قنطارا وخمسين رطلا، وهذا النواطير هي من أرطال كل رطل من ستة عشر أوقية، وأرطال الكور كذلك واحترزت بهذا التبيين مما يذكر بعض المؤلفين إن الرطل عندهم من اثني عشر أوقية".

وشرع بعد هذا بتعداد أنواع المدافع وذكر وزن كل منها ووزن "كورته" ومما تحتاجه كل طلقة من البارود، وكان قبل ذلك قد نبه "على مسألة وهي إن أراد احد إن يعرف أي كوره من جميع المدافع هي تهدم في السور أكثر من سائر الكور،وتظهر قوتها ونتيجتها واقو لان ليس في جميع المدافع من يرمي كوره اقوي وابعد ويظهر لجابته ونتيجة فعله مثل المدافع القلبرينة التي ترمي كوره من خمس وعشرين رطلا، وهي اقوي وابلغ من الدفع الذي يرمي كوره ثلاثين رطلا من جنس القبرينة ومن الذي يرمي أربعين وخمسين رطلا وستين، إلا إن الكورة قدر ما تكون اكبر تهرس وتهدم أكثر وتوقع الحيطان، وإذا كان الاشتغال بهدم سور ولا إن يكون الرمي بالمدافع التي ترمي من ثلاثين رطلا فأقل،لأنها تخرب الأركان والأساس، ثم تخلي المدافع الكبار في دفعة واحدة،وتهدم جميع الحيط والسور وتوقعه،تتركه دكا".

ووقف المؤلف الباب التاسع والعشرين على كيفية تبريد المدافع من كثرة الرمي بها من غير توقف، "ويحتاج المدافعي يرفق بها لان المدفع من كثرة الرمي يسخن من النار حتى يكون لونه كعنق حمام، لاسيما في عنقه لقلة معنيه، واذا شحن المدفع كثيرا تنقص قوته في الرمي ويتعرض للكسر، ولإصلاحه من هذا العارض ينبغي له... إن يبرده بماء

بارد وأفضل من ذلك بالخل ممزوج معه ماء،فتكون له سلكتين أم ثلاثة تدخل في إناء كبير الماء،ثم يغسل بها الدفع، قم ينشفه في باطنه بسلكه ويكنسه بها من الوسخ الذي يكون فيه من كثرة الرمي ويجعل عليه بعض الحوائج من صوف... منقوعة في الماء ليبرد ويدوم عليه حتى يرجع إلى أصله".

ولقد أوضح قانون ألرمايه هو"كل ساعة خمس رميات، وأذا كان اليوم من اثنتي عشرة ساعة فيرمي بكل مدفع ستين مرة وتبرد كما قلنا، وأكثر ما يرمي في كل ساعة ستة مرات، وبعض المؤلفين الذين تكلموا بالعلم وبما ظهر لهم قالوا: ان في كل يوم يرمي المدفع مائة رميه".

ووقف المؤلف الأبواب: 33,34,35,36,37 على معرفة البارود"وتركيبه واستخراج مواده لأاوليه، وفحصه واختبار جودته واصلاحه بعد فساده والح على ان"معرفة البارود هي من اكد الأشياء للمدافعي لان به يكون العمل، فان كان جيدا فيقضي الغرض وان كان دنيا فلا يقضي شيئا ولا يأمن احد للبارودي اذا قال"ويركب البارود من ثلاثة عناصر رئيسيه هي ملح البارود والكبريت والفحم، وتكون نسبة التركيب"ستة أجزاء من ملح البارود وجزء من كبريت وجزء من فحم" ويستخرج ملح البارود كما يستخرج الملح العادي ويجمع من على سطح الأرض ومن علاماته ان المواضع التي يكون فيها في زمن الصيف تكون الأرض على لون عنق حمام،وفيه بعض اللمع كأنه أهرق فيها زيت،وفي الارض الأذي يكون في الفحص غالبا منقوعا ويجري عليه الماء فلا يوجد هنالك ملح لانه يذهب به الماء، ولو كان تحت كان اكثره ملح بارود، وايضا في بعض الغيران... وفي المواضع التي تستقر فيها الغنم لان بقوة ابوالها يتربى فيها لا سيما اذا تبيت في الغيران او موضع مغطيه حيث لا ينزل عليها الشتاء".

وتعتبر محتويات البابين"الثامن والثلاثون والتاسع والثلاثون"من اهم واخطر ما جاء في الكتاب، ففيهما دلاله على تحويل نوعي في استخدام قذائف المدفعية بصنع قذائف تنفجر فتسبب القتل والحرق او للاضاءة في القتال الليلي، وبابداع انواع من القذائف ترمي بواسطةاليد.

واثناء حديث المؤلف عن جميع هذه الانواع وتبيان كيفية صنعها وتركيب حشوتها لم يفته الحديث عن "النيران التي ترمى في ايام الفرح والمواسم التي تصعد في الهواء".

واذا كان كل ما ذكره المؤلف حتى الان هو اصلا وسائل للقتال الهجومي، فأننا نجده لا ينسى وسائل الدفاع والتمويه، وهذا ما تحدث عنه في الباب "الواحد وأربعين" والحديث هنا له الصفة الهندسيه وفي الحقيقة نلاحظ ان هذه الصفة قد طفت على بقية ابواب الكتاب. هذا الكتاب الرائع الذي لا يوجد له نظير في قدمه ومحتواه في ايه لغة اخرى، لذلك ان الحديث عنه في مقال واحد لا يكفي، وكل ما استهدفته حتى الان مجرد التعريف الاولي، ذلك انه عندما ينشر نص الكتاب سيجد فيه المختصون العسكريون العرب وسواهم مادة مفيدة تعلن للدنيا ان هذه الامه التي كانت في الماضي سباقة في كل الميادين ليست فقط الان قادرة على اللحاق بركب الحضارة الحالي وانما على قيادته

أشراقات من تراث الأدب الأندلسي الموريسكي

(كتاب العزة والرفعة والمنافـــع

للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع)*

لبثت بقايا الأمة الأندلسية المغلوبة،وهي التي تعرف بطائفة الموريسكيين أو العرب المتنصرين، بعد انتهاء دولة الإسلام بالأندلس، زهاء مائة عام، تعيش في اسبانيا، في عزلة تامة وذلة مطبقة، وقد حرمت في نهاية الأمر من سائر شعائرها ومميزاتها القديمة، فأرغمت، بعد التنصير، على ترك اللغة العربية واستعمال الثياب والتقاليد والأسماء العربية، وألزمت باستعمال اللغة القشتالية في التخاطب وسائر أبواب التعامل. ومع ذلك فقد لبث أولئك الموريسكيون أو العرب المتنصرون، يتمسكون سرا بعقيدتهم الإسلامية، ويزاول الكثير منهم شعائرهم خفية، واستطاعوا إن يخترعوا لأنفسهم لغة سرية لكتبة شعائر دينهم، والتعبير عن أفكارهم، هي لغة ((الألخميادو)) الشهيرة Aljamiado، وهي اللغة الرومانية القشتالية تكتب بأحرف عربية، فكتبوا القران سرا باللغة العربية وكتبوا التفسير وإحكام الصلاة والصوم وغيرها بالألخميادو، وظهر منه في أواخر القرن السادس عشر، كتاب وشعراء، كتبوا أدبهم، ونظموا شعرهم بالألخميادو، وقد انتهى ألينا الكثير من تراثهم الديني والأدبي المكتوب بهذه اللغة، وتوجد منه طائفة كبيرة بمكتبة مدريد الوطنية ومكتبة أكاديمية للتاريخ.

وقد ظهر في نفس الوقت بين أولئك الموريسكيين كتاب كتبوا باللغة العربية، وهو مايدل على أن اللغة العربية، كانت بالرغم من حرص السلطات الاسبانية على مطاردتها وسحقها، كانت ماتزال حية بين الموريسكيين حتى أواخر القرن السادس عشر، واسطع مثل لذلك، هو مثل الشهاب الحجري، وهو كاتب موريسكي من احواز غرناطة،

* محمد عبد الله عنان،مدريد في 12 يونيه 1971.

ويسمي نفسه باسم الأندلسي، أب العباس أحمد بن القاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري. والظاهر إن الحجري هنا هي نسبة لقرية أحجر الغرناطية، وتحمل اليوم أسم Uljar بالاسبانية، ويعرف كذلك بأفوقاي، وهو فيما يبدو أسمه الموريسكي. وقد أستطاع هذا الكاتب الموريسكي أن يغادر وطنه الأندلس في سنة 1007 هـ (1598)، أعنى قبل مأساة نفي الموريسكيين من اسبانيا بإحدى عشر سنة.

ويقص علينا الشهاب قصة فراره مفصلة في كتاب عنوانه ((رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب)) وهو كتاب لم يصلنا مع الأسف. ولكن صاحب كتاب ((زهرة البستان فالبرتغاليين سيدنا المولى زيدان))، وهو مخطوط مغربي يحفظ بخزانة الرباط العامة، أستطاع لحسن الطالع أن ينقل ألينا هذه القصة مفصله، وخلاصتها أن الشهاب أستطاع إن يغادر أسبانيا من ثغر شنت مريه البرتغالي (فارو) في سفينة، متنكرا في زى الأسبان، إذ كان يتقن اللغة الاسبانية إلى ثغر البريجة الذي أنشأه البرتغاليون، على الشاطب

المغربي على مقربة من أزمور، وهو الذي يسمى اليوم بثغر الجديدة. وقد كان ثغر الجديدة يومئذ في يد البرتغاليين. ثم أستطاع إن يفر مع بعض من رفاقه إلىثغر ازمور وذلك بالرغم من مطاردته بطلقات المدافع عقب وقوف الحراس على سره، وقد شرح لنا الشهاب، في خاتمة كتابه ((العز والمنافع))، وهو الذي نتحدث عنه بعد، كيف أستطاع أن يعد نفسه لهذه المغامرة، أي مغامرة فراره في تلك الفقرة:

((وأقول أعلم أن أول ماتكلمت به ببلاد الأندلس، كان العربية، وكانت النصارى دمارهم الله، أن تحكم من يجدونه يقرأ العربية. فتعلمت القراءة الأعجمية للأخذ والاعطى، ثم ألهمني الله سبحانه وتعالى أن اخرج من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين، لما تحققت أن الكفار كانوا في الثغور يبحثون عن كل من يرد عليهم، لعلهم يجدونه أندلسيا مخفيا ليحكموا فيه، لانهم كانو منعوهم من الثغور ليلا يهربوا إلى بلاد المسلمين، فجلست سنين نتعلم الكلام، والا خذ في كتبهم، ليحسوا إني منهم إذ أمشي إلى بلادهم للخروج منها إلى بلاد الإسلام. ولما جئت إلى البلاد التي هي على حاشية البحر، حيث هو الحرس الشديد، وجلست بينهم، فلم يشكوا في، بما رأوا مني من الكلام والحال

والكتابة، وجئت من بينهم إلى بلاد المسلمين. وبهذه النية تعلمت وبلغت في كتبهم. ولكل أمريء مانوى. ثم رأيت إن سبب التعليم انه كان بنية القرب من الله ببلاد المسلمين فتح لي بذلك العلم المنهي عنه ببيان الملوك المسدودة عن كثير من الناس)).

ولما نجح الشهاب في مغامرته، ووصل إلى ثغر أزمورسار توا إلى مراكش، واتصل بالسلطان أحمد المنصور الذهبي ملك المغرب يومئذ، وأشتغل مترجما للبلاط في عهد المنصور،ولما توفي المنصور سنة 1012 هـ (1603م) استمر مترجما لبلاط في عهد ولده السلطان مولاي زيدان المتوفي سنة 1037هـ (1627)، ولقب بترجمان مراكش، إذ كان كما قدمنا يجيد الأسبانية إلى جانب العربية، واستعمله السلطان فوق ذلك للسفارة عنه في بعض البلاد الأوربية. ثم رحل الشهاب في أواخر حياته إلى المشرق وأدى فريضة الحج، وألف عقب عودته من الحج كتابا عنوانه ((ناصر الدين على القوم الكافرين))، وفيه يؤيد تعاليم الإسلام ويدعمها، ويفند حجج النصارى. وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية.1(1)

ولقي الشهاب فيما يبدو خلال مروره بمصر،في طريقه إلى الحجاز، أو عقب عودته منه، مؤرخ الأندلس الكبير شهاب الدين المقري، وهو يشير إليه والى كتابه ((نفح الطيب)) في كتابه ((العز والمنافع)) في تلك الفقرة: ((وقد صح من كتب التواريخ التي جمعها العلامة الشيخ احمد المقري في كتابه بمصر، في الكتاب الجامع للتواريخ على بلاد الأندلس، أعادها الله إلى الإسلام)).

ونزل الشهاب. عقب عوده من المشرق، بتونس، وقربه أميرها الداي مراد يومئذ. وهنالك توثقت أواصر الصداقة بينه وبين زميل موريسكي مهاجر، يسمى باسمه

(1) تقوم على تحقيق هذا المخطوط ونشره الأستاذ كليليا سارنللى C. Sarelli أستاذ بالمعهد الشرقي بجامعة نابولي، وقد نشرت منه فصول في مجلة المعهد المذكور.

الأندلسي الرئيس إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي. وكانت اسبانيا قد نفذت يومئذ قرارها الشهير بنفي الموريسكيين من أراضيها (سنة 1018 هـ الموافق لسنة 1609 م) وخرج من اسبانيا مئات الألوف من أولئك المنفيين في مناظر مؤسية،وتفرق معظمهم في ثغور الغرب ومدنه. ونزل منهم بالشواطئ التونسية نحو ثمانين إلفا،وأوسع لهم عثمان داي، أمير تونس يومئذ، في البلاد، وأنشأوا بالأراضي التونسية عدة محلات ومدن جديدة تمتاز بالطابع الأندلسي، مثل نستور وباجة وقرنبلية وسليمان وغيرها.

وكان الرئيس ابن غانم هذا الذي توثقت أواصر الصداقة بينه وبين الشهاب، فيما يبدو من زعماء الجند وخبراء الأسلحة. وقد ألف بالاسبانية (الأعجمية) كتابا في الجهاد بالمدافع. وكان هذا الفن يومئذ في أوجه، يسير قدما نحو التقدم والتفوق. فقام الشهاب الحجري بترجمته إلى اللغة العربية وسماه: ((كتاب العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع)). وهو مخطوط فريد في محتوياته، لايمتاز فقط، بما ورد فيه من المعلومات الفنية الدقيقة المفصلة عن فن تركيبات المدافع المختلفة في هذا العصر، وعن كيفية إدارتها واستعماله وتعميرها، وأصناف البارود التي تعمر بها، وطرق الرمي بها، بل يمتاز كذلك بما يحتويه من الرسوم الدقيقة لمختلف طرازات المدافع في ذلك العصر، ومختلف القطع التي تركب منها، وغير ذلك من المعلومات والتفاصيل التي تجعل منه أثرا فريدا في تراث المخطوطات الأندلسية الموريسكية.

ويوجد من كتاب ((العز والرفعة والمنافع)) عدة نسخ مخطوطة، أحداها بخزانة الرباط العامة وهي التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة، واثنتان بدار الكتب المصرية [1]، ونسخة بدار الكتب التونسية (مكتبة العطارين). وتقع نسخة الرباط في 261 صفحة من القطع الكبير، وتحتوي، حسبما أسلفنا، على عدد كبير من صور المدافع المعاصرة، والقطع التي يتألف منها المدفع، مثل مؤخرته،وفوهاته، وعجلاته الحاملة وغيرها، وهي

---

(1) تحفظ نسخة الرباط بالخزانة العامة برقم 87 ج. (المكتبة الجلاوية). وتحفظ نسختا دار الكتب المصرية بإحداهما (المخطوطة) برقم97 فروسية، والتيموري المصورة برقم 86 فروسية.

صور دقيقة متقنة ولابد أن الذي رسمها، أحد الرسامين المهرة، وربما كان أيضا من الموريسكيين، وقد كان بينهم من يجيد الرسم والتصوير، ويوجد بمعرض مكتبة الاسكوريال نسخة جميلة مصورة من كتاب ((السلوانات في مسامرة الخلفاء)) لمحمد بن ظفر (المخطوط رقم 528 الغزيرى) وبه بعض لوحات مصورة بالألوان البديعة، تمثل مناظر عديدة مما ورد في نصوصه، من مناظر الخلفاء والوزراء وغيرهم. وهي صورة زاهية متقنة، تدل على براعة مصورها. والمرجح أنها ترجع إلى أواسط القرن السادس عشر، وهو العصر الذي عاش به الموريسكيون في أسبانيا.

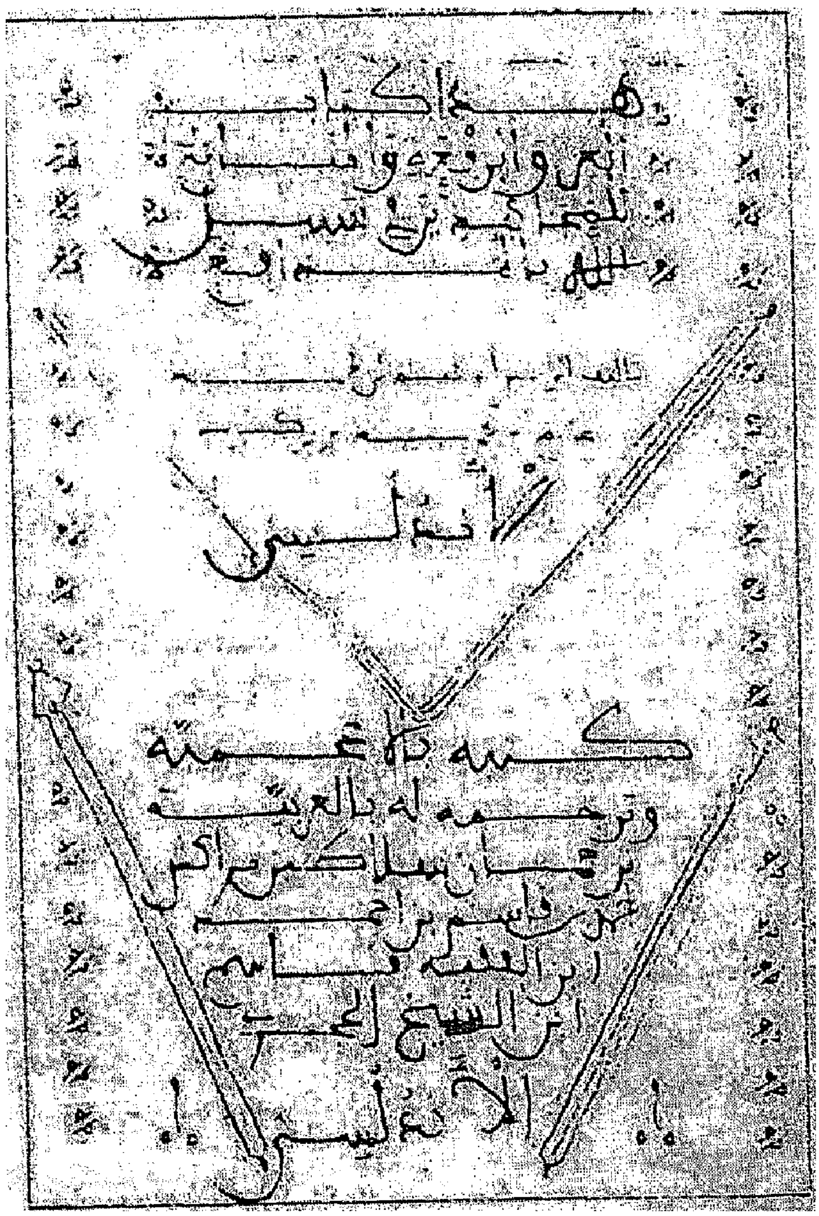
تلك هي محتويات ذلك الأثر الموريسكي الفريد الذي انتهى إلينا بالعربية، وهنالك بين تراث الأدب الموريسكي آثار كثيرة، كتبت بالأخميدو، وهب اللغة الموريسكية السرية التي أشرنا إليها من قبل، والتي لبثت حقيقتها سرا مغلقا حتى أوائل القرن الماضي ومعظمها آثار دينية تتعلق بالقرآن والحديث والمدائح النبوية،،إحكام الصلاة والصيام والزكاة، وغيرها، بيد أنها تضم في نفس الوقت بعض الآثار القصصية والشعرية الممتازة.

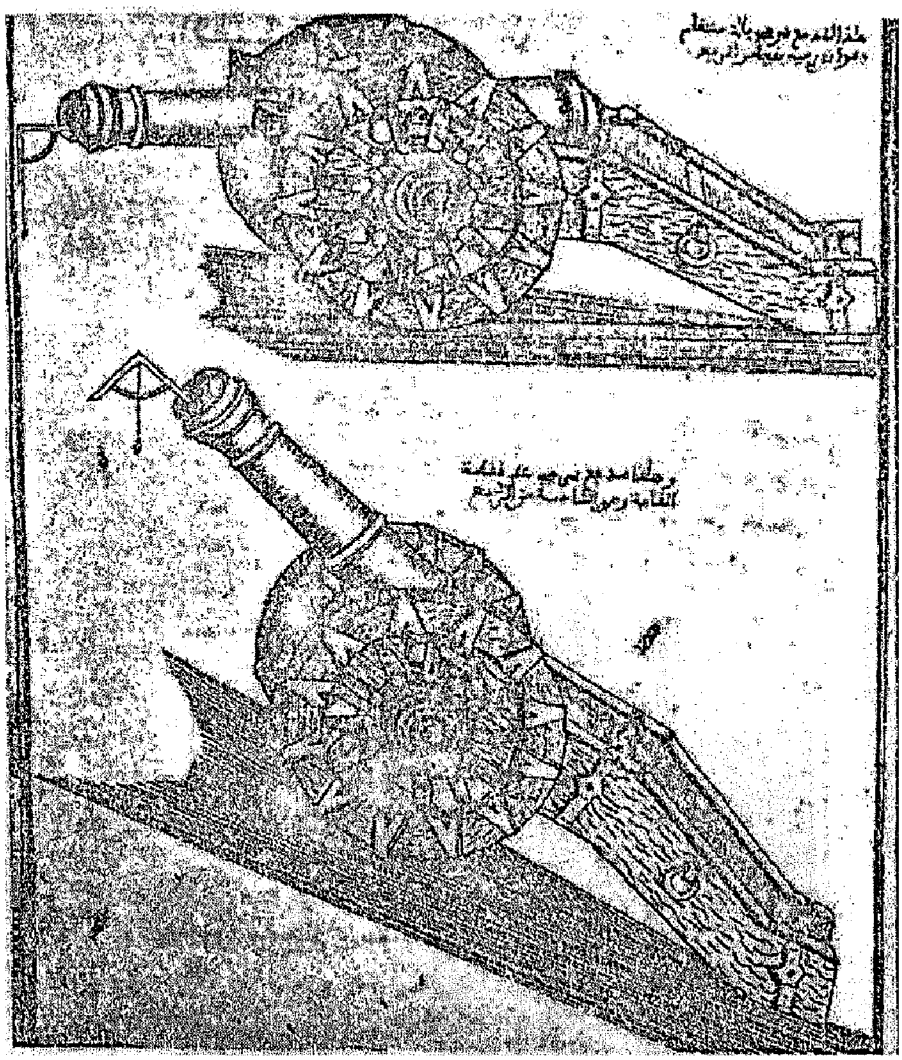
وقد توفي الشهاب الحجري عن سن عالية، فيما يرجح بتونس، وذلك حول سنة 1050 هـ الموفقة لسنة 1640م.

ومما يؤثر عن الشهاب أنه كان لهجا باسترداد الأندلس، وقد نقل إلينا صاحب كتاب "نزهة الحادي" فقرة من رحة الشهاب السالفة الذكر يقول فيها: "أن جزيرة الأندلس استردادها من أيدي الكفار سهل، واسترجاعها منهم قريب. ولما دخلت في أيام المنصور مراكش، وجدت عنده من الخليل نحو ستة وعشرين إلف، فلوا تحركت هذه لفتحتها، واستولى عليها في حين".

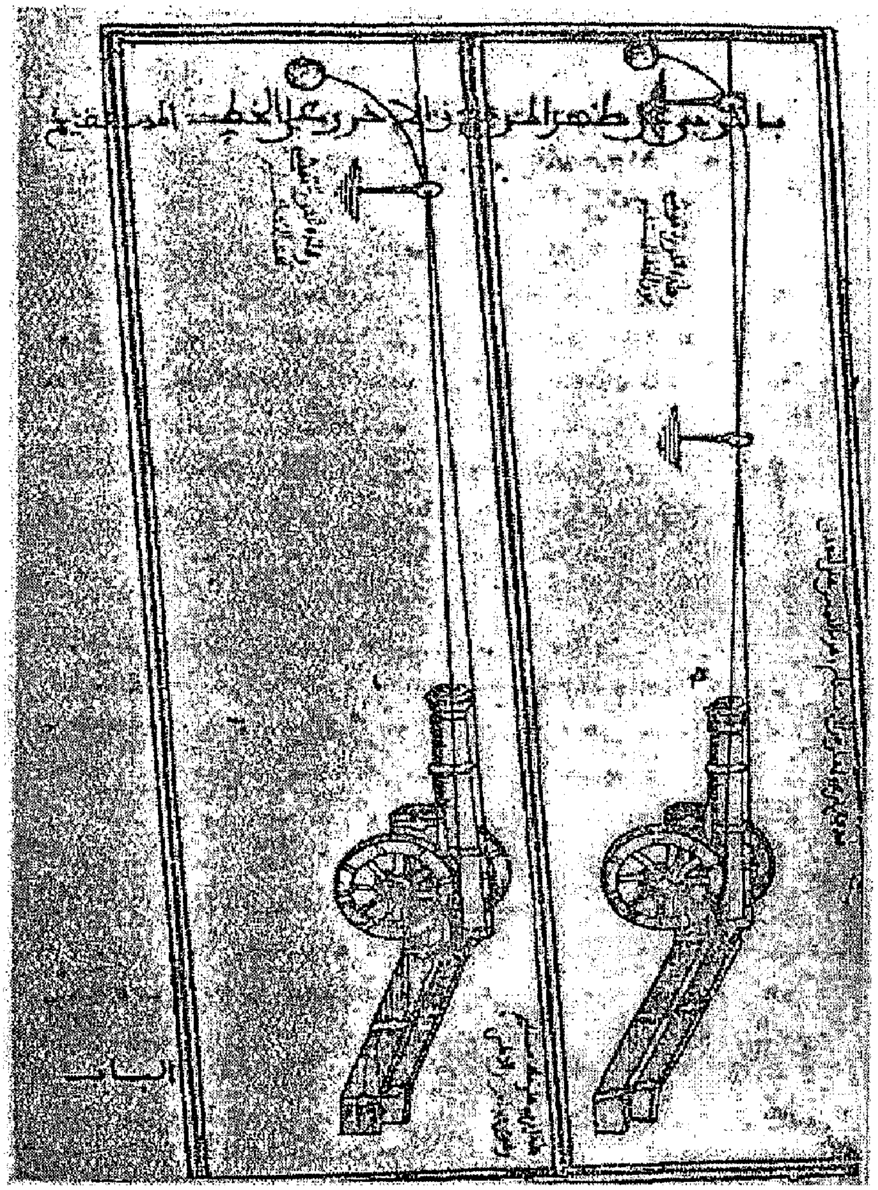
وبالرغم من أن كتاب "العز والرفعة والمنافع" قد فقد أهميته اليوم من الناحية الفنية، بعد ان تطورت الفنون الحربية، وأنواع السلاح، ذلك التطور الهائل الذي نشهده في عصرنا، فأنه يبقى مع ذلك محتفظا بكثير من أهميته التاريخية عن تطور سلاح المدفعيه في العصر الذي كتب فيه، وقد كان عصرا تعتبر فيه المدافع أعظم الأسلحة الهجومية والدفاعية.

شرح اللوحات المخطوطة

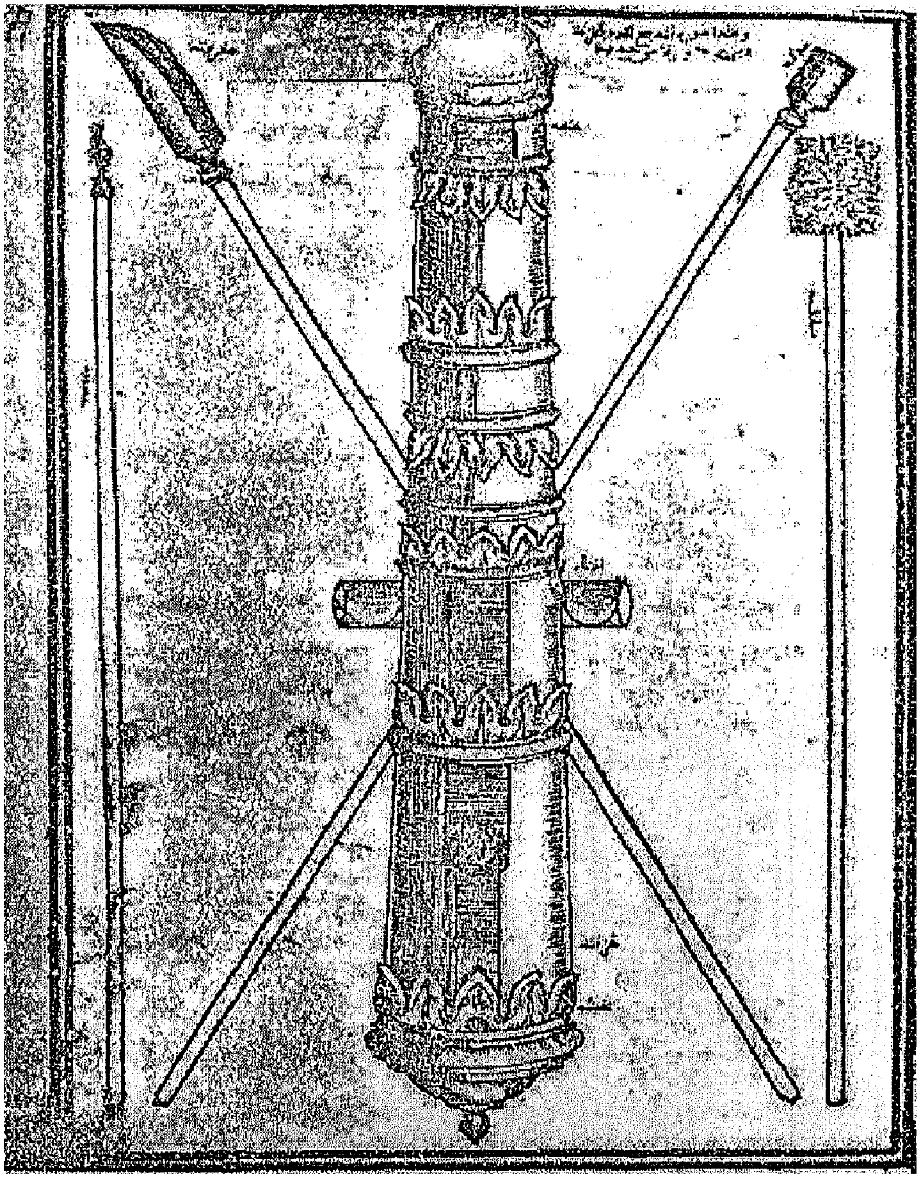




اللوحة رقم (١)
نموذجان من المدافع التي كان يستعملها المجاهدون المسلمون في البحر الأبيض المتوسط في القرن السابع عشر



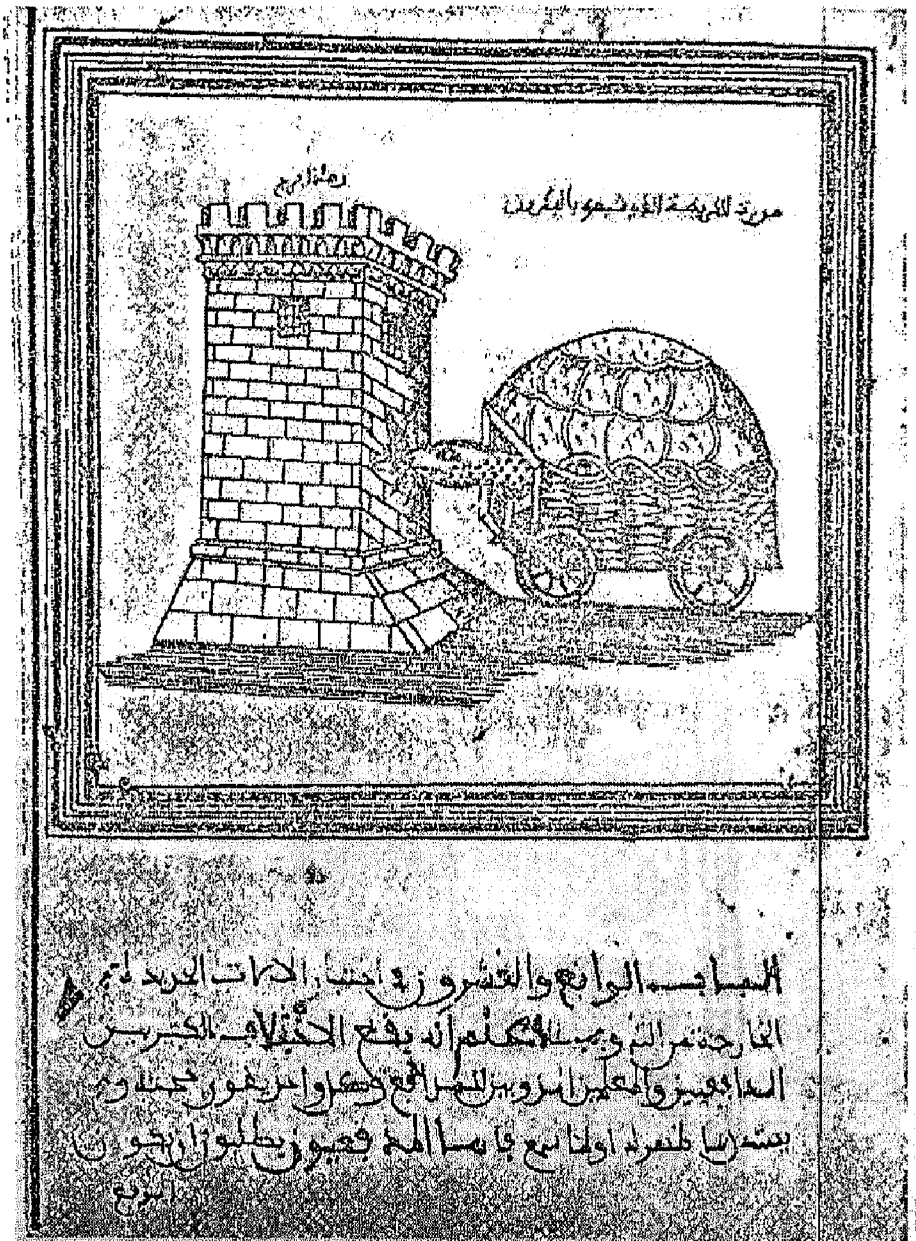
اللوحة رقم (٢)
مدفعان للرمي — احدهما وهو الأعلى ، يرمى فوق
الخط المستقيم ، والآخر يرمى تحت الخط المستقيم



اللوحة رقم (٣)
نموذج المدفع ذي الخزنة



اللوحة رقم (٤)
صورة للمدفع الهراس حين انطلاقه على أحد
الحصون ، وإلى جانبه عدة من القنابل



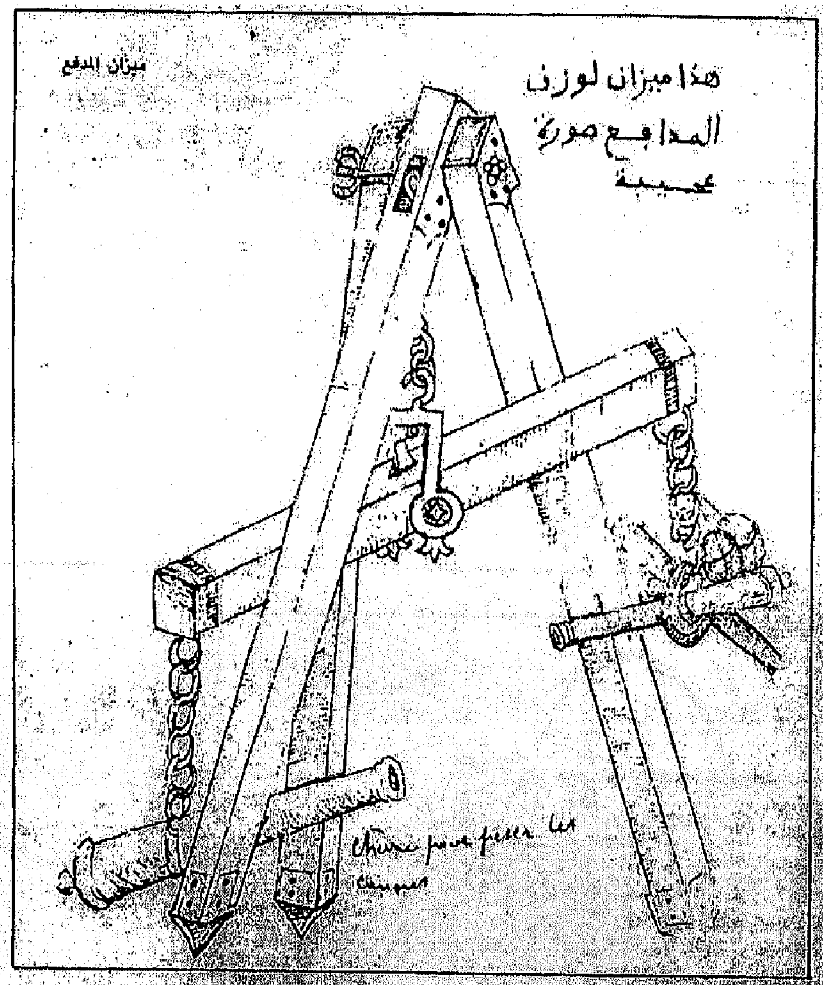
اللوحة رقم (٥)

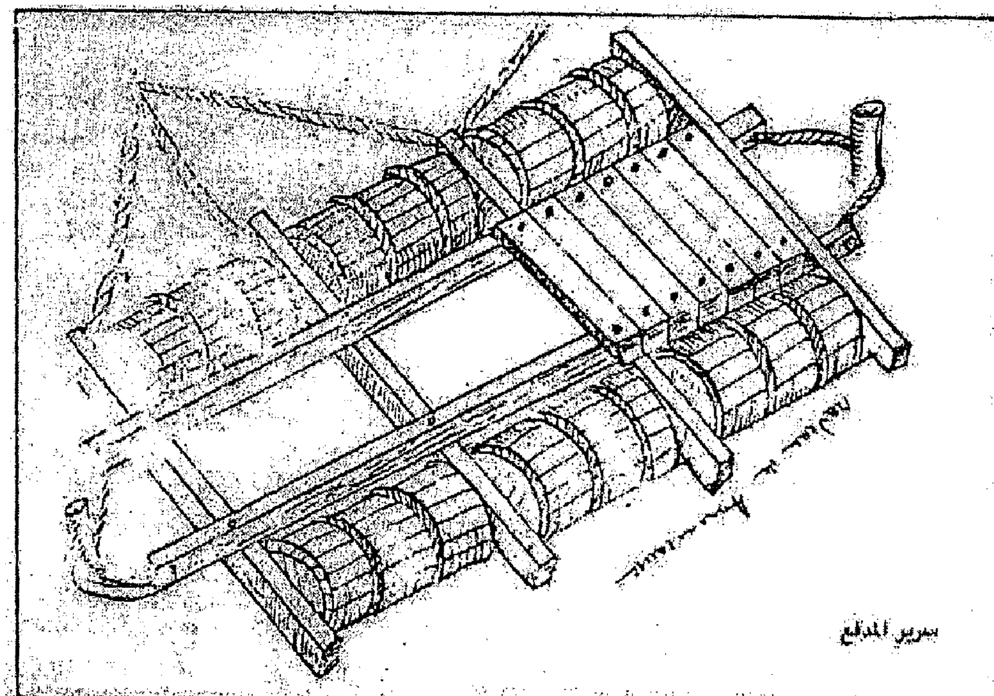
صورة «الكريطة» التي كانت تسلط على الأبراج لهدمها

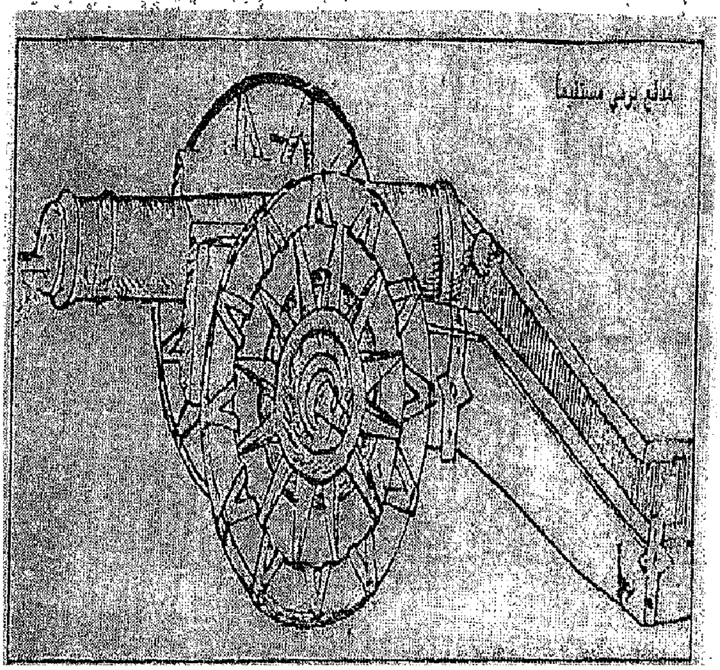


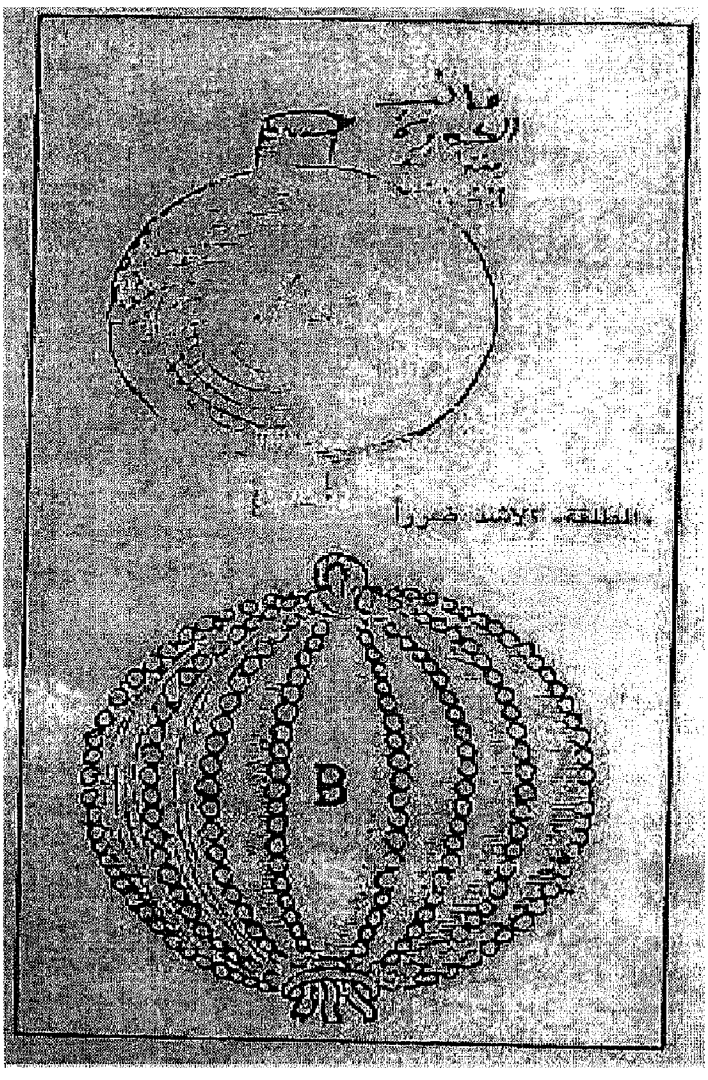
اللوحة رقم (٦)

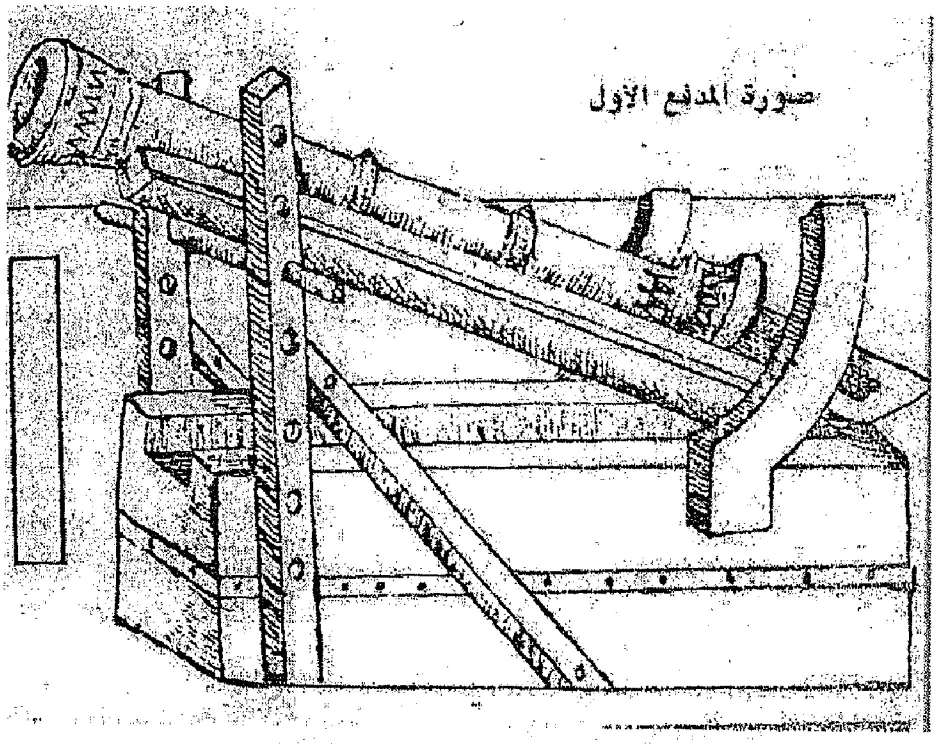
صورة لآلة المنجنيق بعد تطورها في القرن السابع عشر

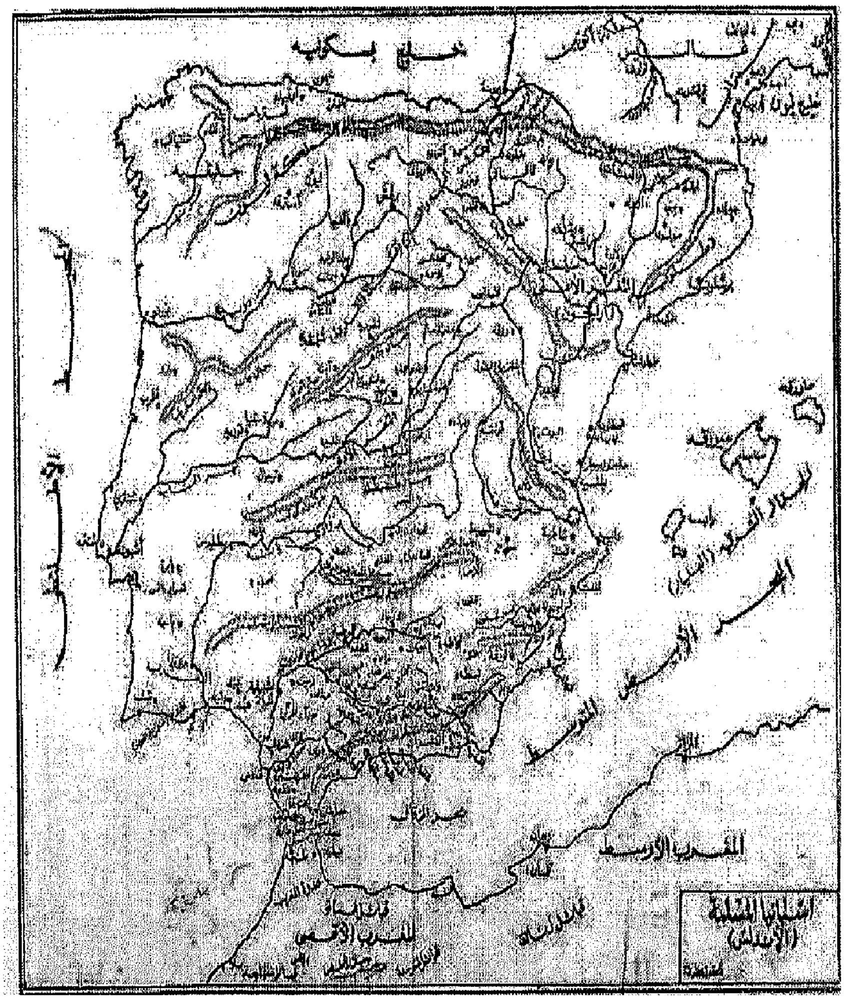

ميزان المدفع
هذا ميزان لوزن
المدافع صورة
عجيبة

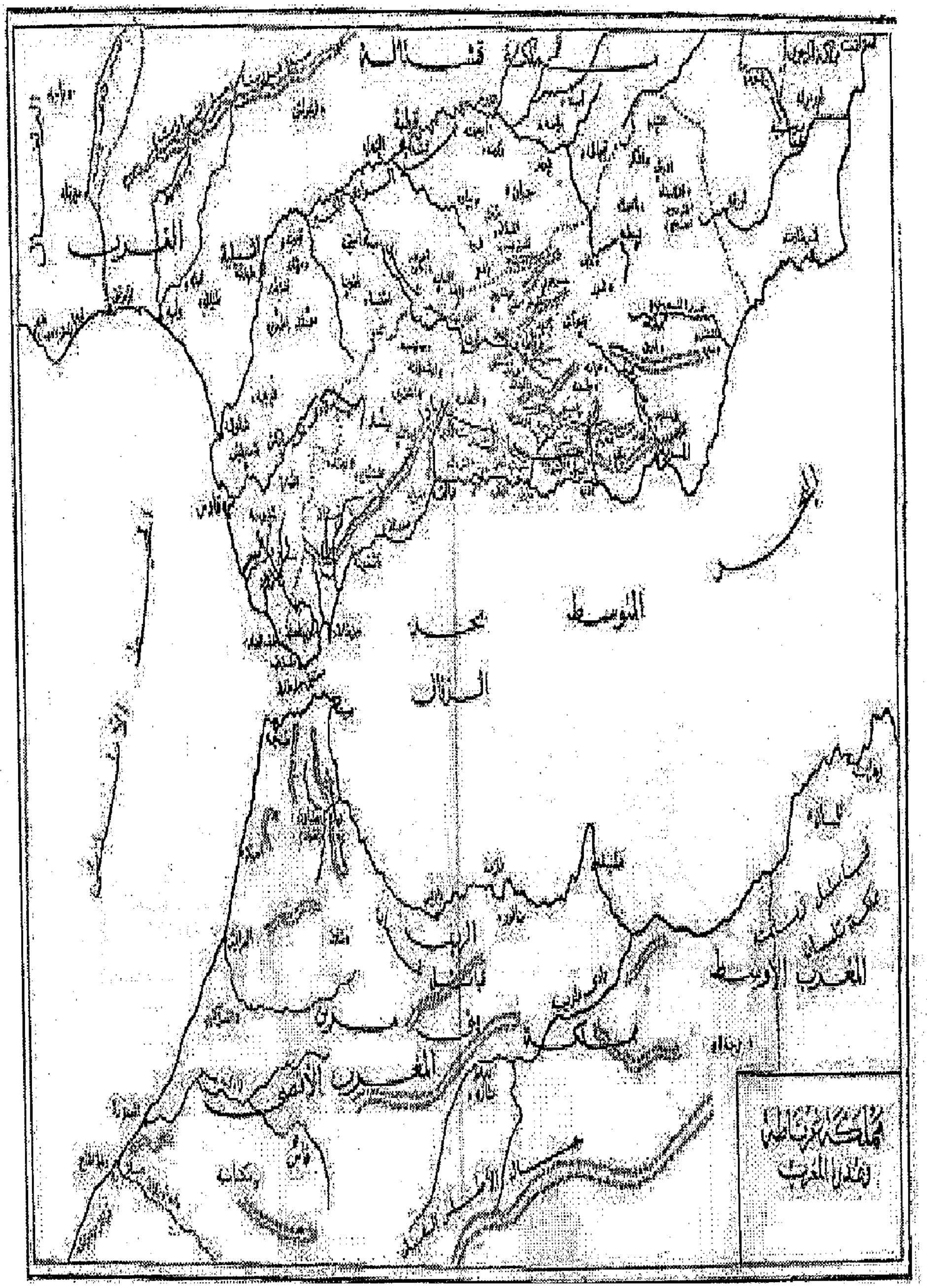

سرير المدافع



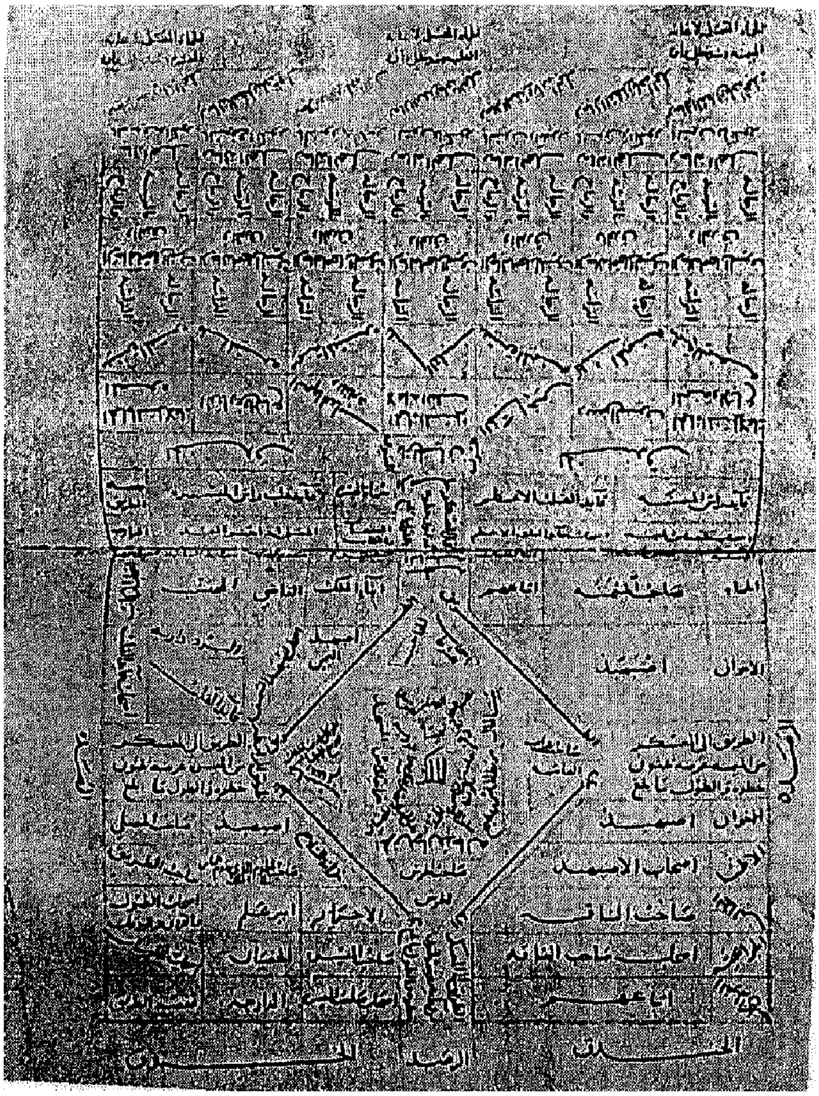

الحلقة الأشد ضرراً


صورة المدفع الأول


خليج بسكاي
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
أسبانيا المسلمة
(الأندلس)



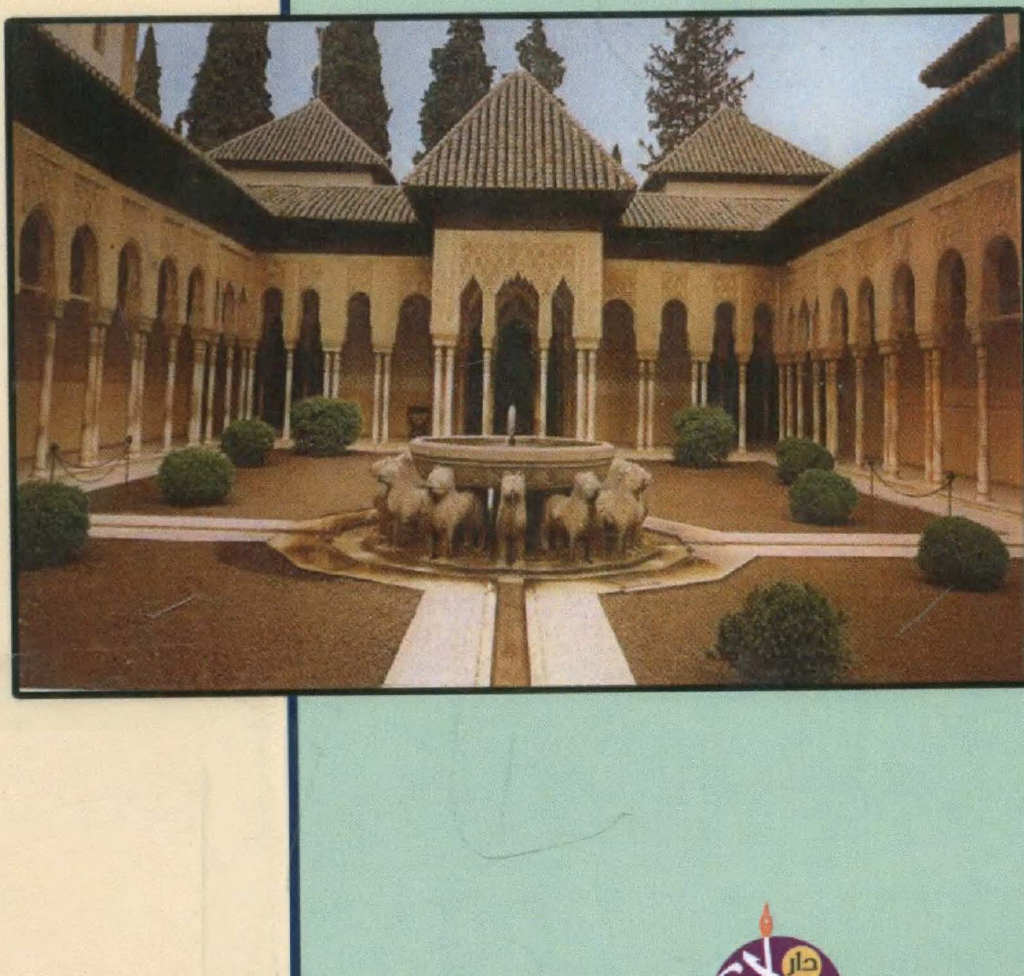
مملكة غرناطة
قشتالة
البحر المتوسط
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى



1- اللوحات جميعها مأخوذة من مخطوط كتاب ((العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، وهو مخطوط جامع الزيتونة المحفوظ بدار الكتب الوطنية بتونس.

المصادر

- ابن الابار القضاعي / ابي عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي بكر الاندلسي البلنسي / ت658هـ التكملة لكتاب الصلة، ضبط جلال الاسيوطي، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت 1429هـ/ 2008م.
- ابن حزم الاندلسي / ت456هـ/ طوق الحمامة في الالفة والالاف،ضبط سعيد محمود عقيل/ دار الجيل / بيروت بلا ت) ص56.
- ابن حزم القرطبي / ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم، ت456هـ / جمهرة انساب العرب / ضبطها عبد المنعم خليل ابراهيم، دار الكتب العلمية / ط5 / بيروت / 1430 هـ / 2009م / .
- ابن حيان القرطبي / المقتبس / تحقيق:بدروا جالميتا وكوير انطي / نشر المعهد الاسباني العربي للثقافة / مدريد 1979م.
- ابن عبد الحكم المصري، عبد الرحمن بن عبد الله / فتوح افريقيا والاندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1964م .
- ابن عذاري المراكشي (ت بعد 712هـ) البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب.
- علي بن موسى بن محمد بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي الغرناطي ت 685هـ/ المغرب في حلى المغرب / دار الكتب العلمية، ط.بيروت1417هـ/ 1997م.
- المقري، شهاب الفدين احمد بن محمد (ت1041) نفح الطيب من غضن الاندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت.



دار غيداء للنشر والتوزيع

تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله
مجمع العساف التجاري - الطابق الأول
تلفاكس : 5353402 6 962+
خلــوي : 95667143 7 962+
ص.ب : 520946 عمان 11152 الأردن
E-mail: darghidaa@gmail.com

9789957960933